عبد الوهاب القصاب

الحرب العراقية - الإيرانية ١٩٨٠ - ١٩٨٨

قراءة تحليلية مقارنة في مذكرات الفريق الأول الركن نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الحرب العراقية - الإيرانية

1980 -1988

قراءة تحليلية مقارنة

في مذكرات الفريق الأول الركن

نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي

الإهداء

إلى الـدم العراقي النبيل الذي سـفح دفاعًا عن حياض الوطن في أشرس حرب خاضها العراقيون للدفاع عن وطنهم وقيمهم.

إلى الأجيال الشابة الجديدة دروسًا وعِبَرًا...

أهدي هذا الجهد المتواضع.

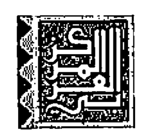
الحرب العراقية - الإيرانية

1980 - 1988

قراءة تحليلية مقارنة
في مذكرات الفريق الأول الركن
نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي

عبد الوهاب عبد الستار القصّاب

الغلاف: صورة من «معركة تحرير الفاو»، 1988



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

الفهرسة أثناء النشر إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

القصاب، عبد الوهاب عبد الستار

الحرب العراقية - الإيرانية، 1980-1988: قراءة تحليلية مقارنة في مذكرات الفريق الأول الركن نزار عبد الكريم فيصل الخزرج/ عبد الوهاب عبد الستار القصاب.

176 ص. : ايض.، خرائط ؛ 22 سم.

يشتمل على بيليوغرافية وفهرس عام.

ISBN 978-9953-0-2930-6

1. الحرب الإيرانية - العراقية، 1980-1988. 2. الخزرجي، نزار عبد الكريم فيصل. ب. العنوان.

955.0542

العنوان بالإنكليزية

The Iraq-Iran War
1980-1988
A Comparative Analytical Reading of the Memoirs of General (General Staff) Nizar Abdulkareem Faysal Al-Khazraji

by Abdulwahab Abdulsattar Al-Qassab

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

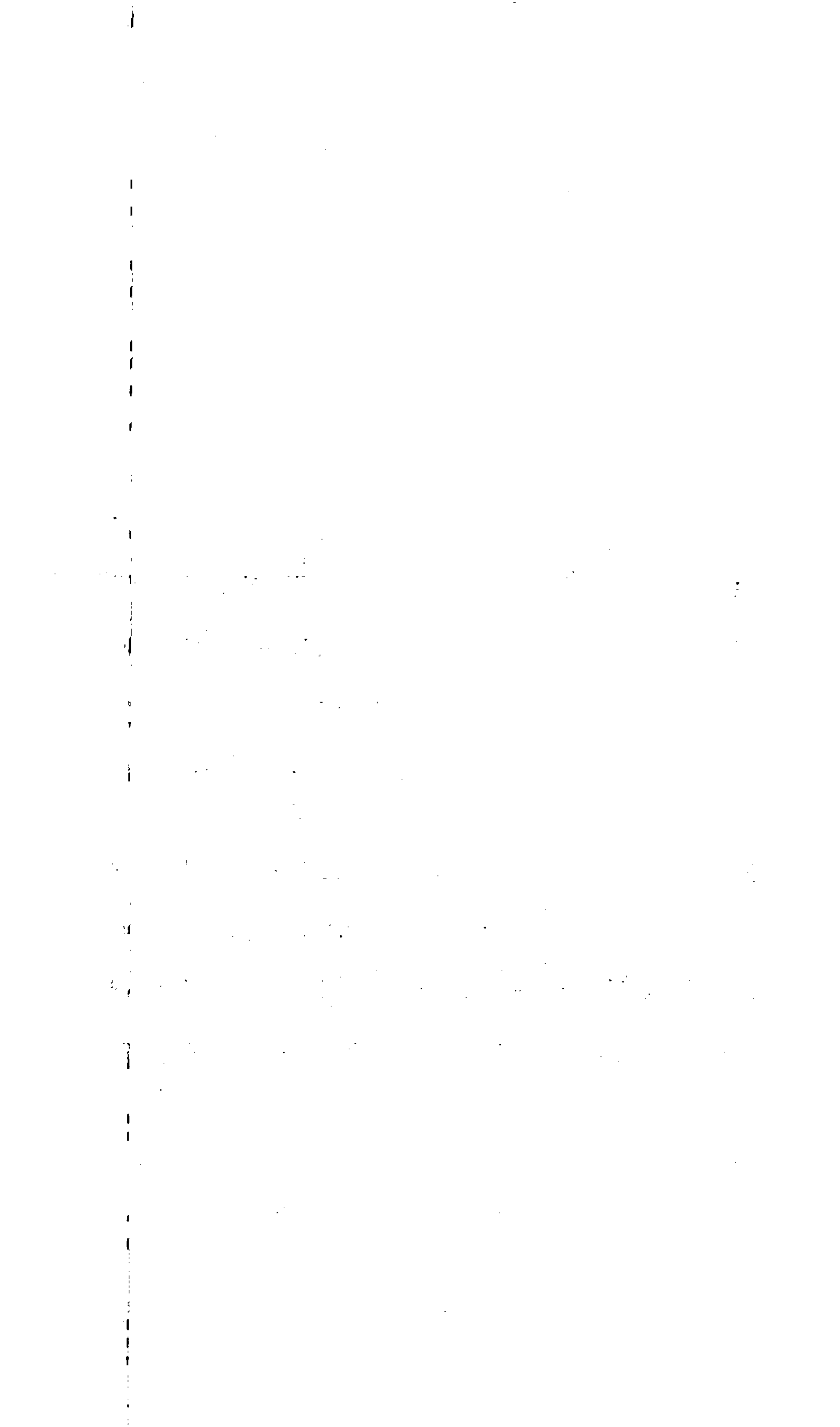


المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

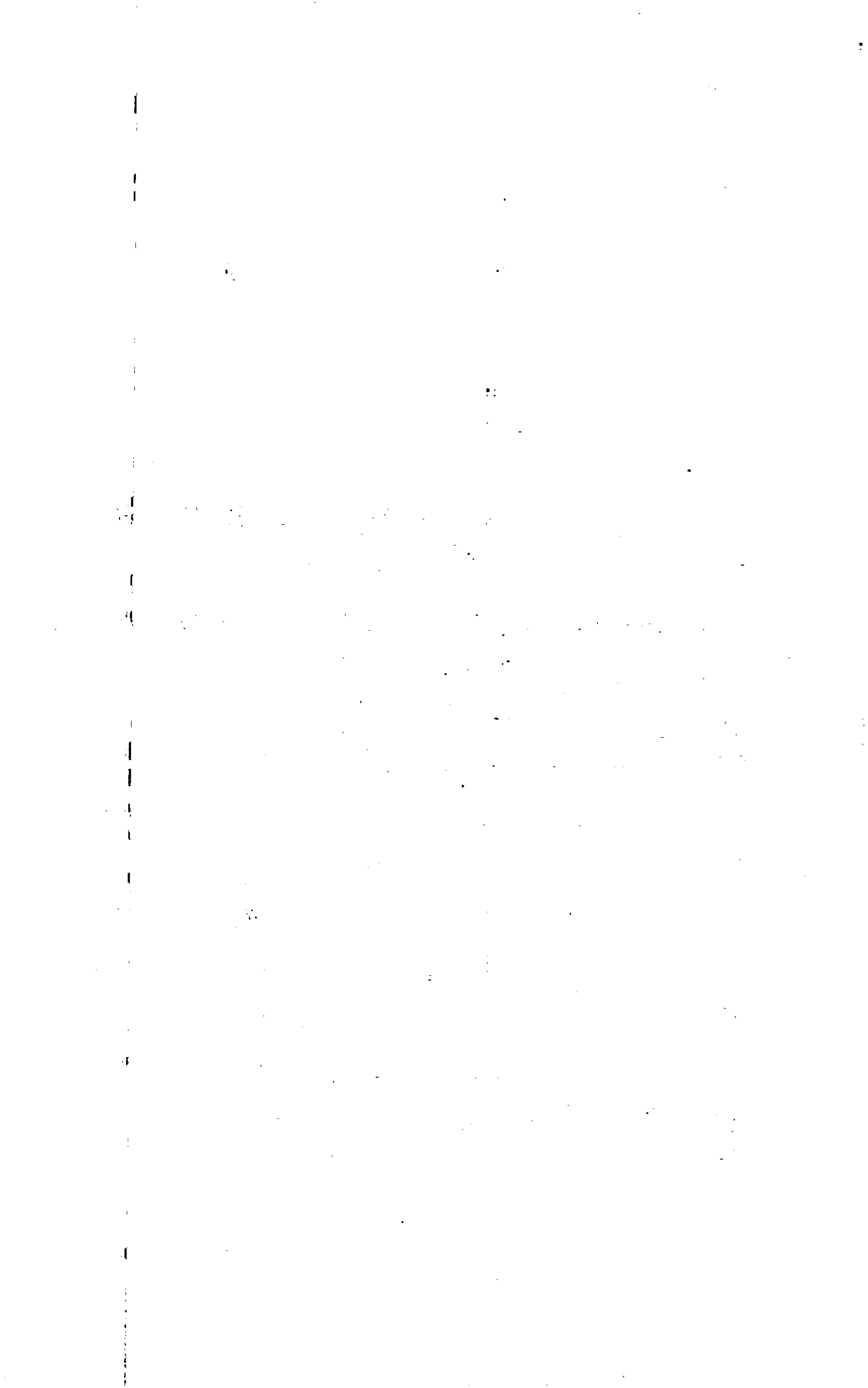
شارع رقم: 826 منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية الدفنة، ص. ب: 10277 الدوحة قطر
هاتف: 0097444199777 فاكس: 0097444831651
جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 11 4965 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 00961 1 991837 8 فاكس: 00961 1991839
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، كانون الثاني/ يناير 2014

المحتويات



قائمة الخرائط



مقدمة

كلمة لا بدّ منها

ما دفعني إلى كتابة هذا الكتاب هو المذكرات الأمينة والمتميّزة التي كتبها واحدٌ من الشهود المهمين على حربٍ ضروسٍ عاصرها منذ بدايتها، حتى شهد نهايتها نتيجة خمس مناورات ذات طبيعة استراتيجية وعملياتية، أثبت فيها أن جيشًا عربيًا بإمكانه أن يبلغ أعلى الدرجات في التدريب والأداء القتالي إذا تمكّن القائمون عليه، قادة وهيئات ركن، من التدقيق في انتخاب أولوياتهم في التسليح والتدريب والإعداد القتالي.

لم تكن الحرب العراقية – الإيرانية حربًا عبثية، بل حربًا دافع العراقيون فيها عن حدود بلدهم وذادوا عن حياض وطنهم وأمتهم بدمائهم ومالهم وعرقهم. قاتلوا للحفاظ على قيمهم وأمنهم القومي وشخصية بلدهم المميّزة الضاربة في أعماق التاريخ كمهدٍ للحضارة الإنسانية. لم يكن العراقيون عدوانيين أو معتدين في هذه الحرب، بل صدّوا العدوان الذي بدأ في الرابع من أيلول/ سبتمبر 1980 بمناوشاتٍ حدودية تصاعدت شيئًا فشيئًا، واستُخدمت فيها

الأسلحة كافة. من هنا فإن ما ســتضيفه مذكرات الفريق الخزرجيّ سيســهم بالتأكيد في إجلاء الحقائــق ووضع الأمور فــي نصابها الحقيقي.

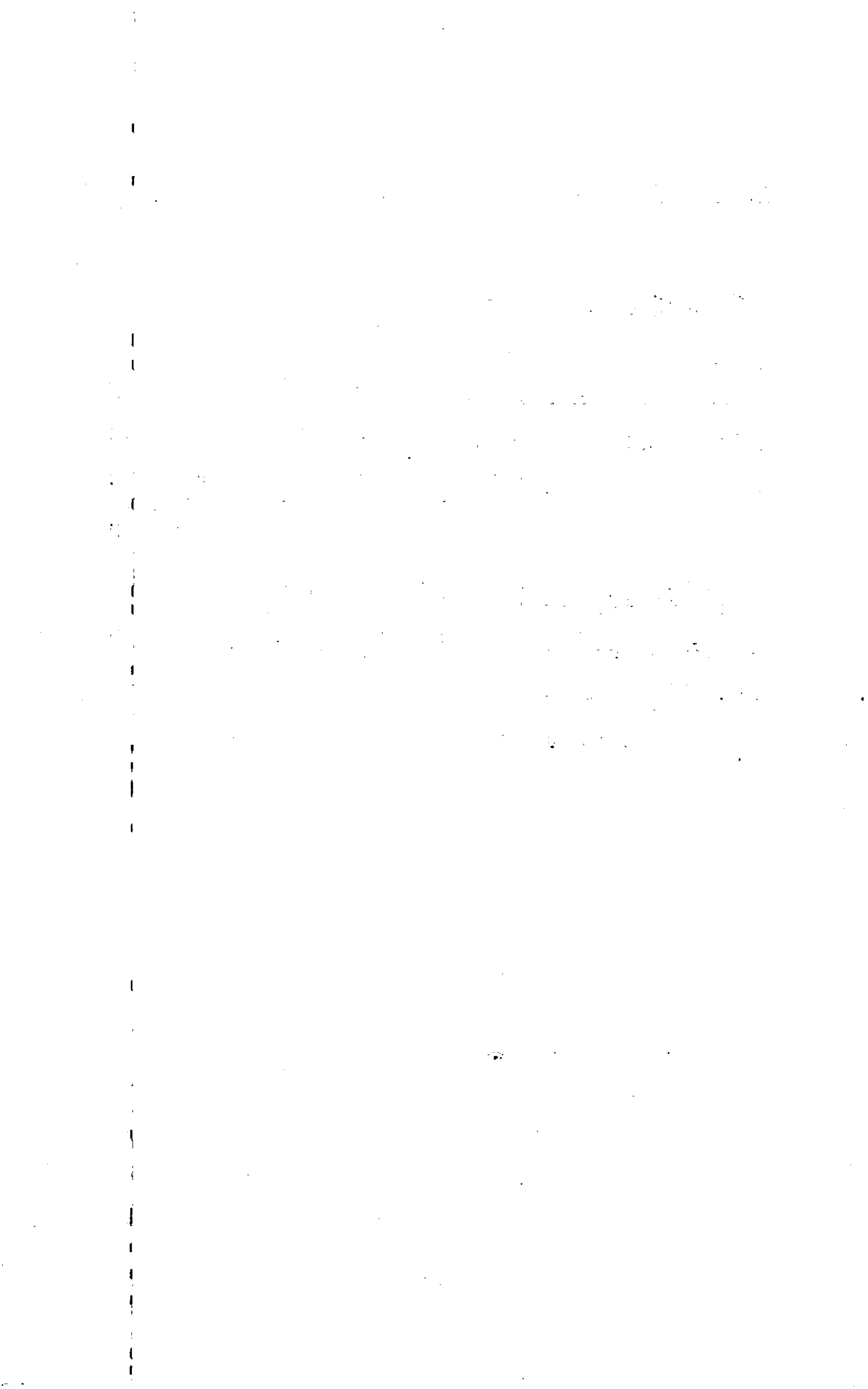
كان لي الشــرف فعلًا أن يعهد إليّ «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياســات» ممثلًا بمديره العام عزمي بشارة أن أعمل مع مؤلف المذكرات، وهو الشــخص الذي أكنُّ له كثيرًا من الاحترام والالتزام لأنني عملت بإمرته طوال تسنّمه منصــب رئيس أركان الجيش، فكنت مستشــاره البحري، ثم مستشــاره لشــؤون البحث والتطوير. لم تكن معرفتي بالفريق الأول الركن نزار الخزرجيّ بنت يومها، أي أيــام عملي تحت قيادته فــي الأركان العامة، بل تذهب بعيدًا إلى أيــام كنت مبتعثًا إلى الهند للدراســة فــي منتصف عقد السبعينيات، وكان يعمل ملحقًا عسكريًا للعراق في الهند، عرفته منذ ذلك الحين ضابطًا يتميز عن الآخرين كثيرًا.

ســيجد القارئ ســردًا أمينًا غاية في الموضوعية لمراحل هذه الحرب الضروس، ومحطــاتٍ مهمةً ينظر فيهــا الفريق الخزرجيّ بعينٍ ناقدة وفكرٍ موضوعيٍّ إلى أداء القوات المسلحة العراقية، ليس في مراحل الإخفاق فحسب، بل في مراحل الانتصار والتألق أيضًا. ولعل في هذا مــا يزيد من درجة الثقة بمــا أورده كاتب المذكرات عما تضمنته مراحل الحرب العراقيــة - الإيرانية من حوادث. كان موضوعيًا جــدًا وهو يناقش قضية الأســلحة الكيماويــة وضرب حلبجة المزعوم، إذ بيَّن بتجرد روايته الشخصية منذ أبلغته هيئة ركن القيادة العامة بأن مراقبة الشــبكات الإيرانية تنبئ بأن شيئًا ما يجري

في جبهة حلبجة، ومتابعته مع مختلف القوات والأسـلحة لكلِّ ما يجري.

صمَّمت وأنا أعمل على مشـروع المذكرات أن أكتب بشكلٍ جانبي عما أحاط بها من وجهات نظر الكتّاب والخبراء والمحلِّلين الغربييـن، ووددتُ أن يكون مـا أكتبه تقديمًا لكتـاب المذكرات، لكن حصيلة عملي كانـت كبيرةً جدًا بمقيـاس المقدمات، لذلك آثر «المركز العربي» مشـكورًا نشرها ككتابٍ مستقلٍ يصدر بموازاة المذكرات.

في الختام أودُّ الإشـارة إلى أن هذا المشـروع لم يكن ليشهد النور فـي هذه الأحوال الملتبسـة لولا الدعم الكريـم الذي قدمه «المركـز العربي للأبحاث ودراسـة السياسـات» الذي أتشـرف بالانتماء إليه، ولولا التشجيع الأخوي من مديره العام عزمي بشارة.



الفصل الأول

المدخل

لم يكن مـا جرى في الفتـرة بين 4 أيلول/ سـبتمبر 1980 والثامن من آب/ أغسـطس 1988 حربًا عبثية، ولا عملًا عدوانيًا ماثلًا مهما قيل عنه مـن مختلف الجهات التـي تعاملت مع هذه الحرب. كما أن هذه الحرب لم تندلـع نتيجة نزاع حدودي على مخفرٍ فحسب، أو على مركز حدودي هنا أو هناك على طول هذه الحدود الطويلة والمعقدة التي تفصل بين بلدين اتسـمت العلاقة بينهما بالشـد والجذب منذ خمسـمئة عام علـى الأقل. وكانت هذه الحرب بحق أطول حروب القرن العشـرين خاضها جيشـان ينتميان إلى دولتين مكتملتي السيادة، اسـتخدما فيها آخر ما أُتيح لهما من تقانة عسكرية وجدت طريقها إليهما عبر التوريد الرسمي التعاقدي المعروف، أو ما أتاحته السـوق السـوداء عبر وسـطاء وتجار السـلاح، أو عبر عمليات سرية خاصة كما في حالة «إيران غيت» حيـث جهّزت الولايـات المتحدة إيران بأسـلحة وأعتدة وقطع غيار عبـر عملية تحولت إلـى فضيحة ما سُـمّي بـ «إيران كونترا». ولـم تكن إسـرائيل بعيدة عن هـذه العملية، أو عمليات أخرى لم تُفضح[1].

(1) صدر عن مجلس الأمن القومي الأميركي ملف غطى قضية أولي نورث، انظر:
National Security Archive, «The Oliver North File: His Diaries, E-Mail, and Memos on the Kerry Report, Contras and Drugs,» (National Security Archive Electronic Briefing =

تنــاول موضــوع الحــرب العراقيــة - الإيرانيــة العديد من الباحثيــن، غربييــن وعربًــا وإيرانيين وهنــودًا وغيرهــم، تنوّعت دوافعهم واجتهاداتهم بتنوع قناعاتهم التي شكلها انحيازهم الفكري والعقيدي. فالطرفان نظــرا إلى هذه الحــرب باعتبارها عدوانًا قام به الطرف الآخــر، واختلفا لذلك في تعيين يــوم بدايتها، حيث عدّ العراق يوم الرابع من أيلول/ سبتمبر 1980 هو اليوم الذي اندلعت فيه الحرب اســتنادًا إلى القصف المدفعي العنيــف الذي قامت به إيران على المدن الحدودية العراقية في القطاع الأوسط من الحدود عند المنفــذ الحدودي البري الرئيس في خانقيــن. وبيّن العراق أن إيران قامت بهذا العدوان انطلاقًا من أراضٍ اعترفت اتفاقية 1975 بعائديتها إلى العراق وتلكأت حكومة الشــاه بتســليمها إلى العراق بســبب الظروف المحلية القلقة كما ادعت. بالمقابل قامت القوات العراقية بسلســلة عمليات حدودية محدودة لإعــادة هذه الأراضي إلى العراق، ونجحت في ذلك. صعّدت إيــران في هذه الفترة من تعرضّها للعراق بزج القوات الجوية الإيرانية، وأسقط العراق طائرة فانتوم إيرانية وأســر قائدها حيًا. ويُعد هذا أكبــر دليل لدى العراق على أن إيران هي البادئة بالحرب.

قام العراق بعد تفاقم الأزمة بهجوم واسع هدفَ إلى إجهاض أي هجمات إيرانية واســعة بالقــوات البرية ولانتــزاع المبادأة من الطرف المقابل. وحــدث هذا التعرض الإجهاضــي بعد ظهر يوم

Book; no. 113, 26 February 2006), on the Web: <http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/index.html>. =

22 أيلول / سبتمبر 1980 الذي تعتبره إيران يوم اندلاع الحرب بـ «العدوان العراقي» ضدها.

من بين هذه الأمور المتشابكة سنحاول التعامل مع قضية هذه الحرب باعتبارها أمرًا عاشه البلدان الجاران، وأخذ مدىً زمنيًا طويلًا ليصل إلى نهايته بعد أن استعاد العراق المبادأة، ونفّذ عملياته الكبرى الخمس التي حسمت نتيجة هذه الحرب.

من هنا قمنا بدراسة أكثر ما كتب عنها من مصادرها المختلفة، وتعاملنا معها تعاملًا حياديًا ما استطعنا ذلك، ملتزمين الموضوعية المطلوبة من المؤرخ والمحلل.

لهذا تناولت في هذا الكتاب ما نمى إلى علمي من تطورات طوال هذه المدة التي استمرت فيها الحرب نتيجة اشتغالي في أعلى أركان هيئة قيادية في القوات المسلحة العراقية، توصلت بسببها إلى تصويبات بعض ما ذهب إليه الباحثون من عرب وأجانب مما تقتضيه الأمانة العلمية وأمانة المؤرخ.

عرض المصادر

كُتب الكثير عن هذه الحرب بأقلام كتّاب غربيين بالدرجة الأولى، لأنها تميزت باندلاعها بين بلدين جارين على درجة من غنى الموارد تتيح لهما الاستمرار في القتال إلى أن يُنهكا معًا. كما يُظنُّ أن أحد أهداف الدفع غير المباشر إلى هذه الحرب من جانب دوائر غربية هو أنها لا ترغب في أن ترى بعد الشاه في هذا الإقليم

الحيوي قوة يُعتدُّ بها، يمكن أن تشــكِّل تهديدًا لمصالحها، أو لبقاء «إسرائيل» وأمنها.

من هنا، كانت مصلحتها حقيقية فـــي إطالة زمن هذه الحرب على غير مـــا ظنّ العراقيون على الأقل. وفـــي عرضنا ما كُتب عنها يُمكننا الإشارة إلى نماذج أتيح لنا الاطلاع عليها، أو إلى خلاصاتها أو عروضها. أصـــدرت دار روتلـــدج (Rutledge) كتابًا بعنوان **أطول الحروب: الصراع العســكري العراقي - الإيراني 1980 - 1988**، كتب فيه ديليب هيرو (Dilip Hiro) فصلًا بعنوان «جذور الصراع: بعد الثورة الإيرانية»، تناول فيه الجذور التي أدّت إلى هذا الصراع والتي سنمرُّ عليها في هذا التقديم.

نرى مـــن الأوراق البحثية المهمة أن مســـاهمات ديليب هيرو في الكتابة مبكرًا عن الحـــرب العراقية - الإيرانية بمختلف جوانبها شـــكلت معينًا جيدًا للباحثين، حيث اســـترعت اهتمامنا دراســـته الجيدة «مســـرد الحرب العراقية - الإيرانية»[2] (Chronicles of Gulf War). ومن كتاباته أيضًا دراسته المهمة: «جذور الصراع: بعد الثورة الإيرانيـــة» (The Roots of Conflict: After The Iranian Revolution) المنشـــورة في كتاب **أطول حـــرب: الصراع العســـكري العراقي - الإيراني** (*The Longest War: Iran-Iraq Military Conflict*)[3]، الذي يُعتبر مرجعًا مهمًّا في هذا المجال.

---

(2) *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 4 (December 1988), pp. 689-723, and «The Strange War in the Gulf,» *Merip Reports*, nos. 125-126 (July - September 1984), pp. 3-14.

(3) Dilip Hiro, *The Longest War: The Iran-Iraq Military Conflict* (New York: Routledge, 1991).

وكتب إفرايم كارش أكثر من عمل عن هذه الحرب، لعل منها الفصل الخاص بقرار الحرب في كتابه المشترك مع إيناري راوتسي (Inari Rautsi) **صدام حسين: سيرة سياسية**[4]، وأتيح لنا الاطلاع على هذا الفصل. وكتب كارش أيضًا: **الدروس العسكرية المستنبطة من الحـــرب العراقية - الإيرانية**[5]. فيما كتب ســتيفن بليتيير فصلًا عن قرار العراق الذهاب إلى الحرب في **الحـــرب العراقية - الإيرانية: فوضى في الفراغ**[6]، وأتيح لنا الاطلاع على هذا الفصل والاستفادة من تحليلاته. وكتب بليتيـــر أيضًا مع آخرين كتابًا أصدرته مشـــاة البحريـــة الأميركية لتحليل القدرات العراقية عشـــية عملية «عاصفة الصحراء» بعنوان **دروس مســـتفادة: الحرب العراقية - الإيرانية**[7]. وكتـــب فيليب روبنـــز فصلًا بعنـــوان «العراق في حـــرب الخليج: الأهداف والاستراتيجيات والمعضلات» في كتاب **حرب الخليج: الأبعاد الإقليمية والدولية**[8].

كذلك كتب المشـــير محمد عبد الحليم أبو غزالـــة كتابًا عن هذه الحرب، يبدو من خلال المخططات الملحقة به أنه استند إلى

---

(4) Efraim Karsh and Inari Rautsi, *Saddam Hussein: A Political Biography* (London: Brassey's, 1991).

(5) Efraim Karsh, «Military Lessons of the Iran-Iraq War,» *Orbis* (Spring 1989).

(6) Stephen C. Pelletiere, *The Iran-Iraq War: Chaos in a Vacuum* (New York: Praeger, 1992).

(7) Stephen C. Pelletiere and Douglas V. Johnson, *Lessons Learned: The Iran-Iraq War* (Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 1991), vol. 1.

(8) Hanns W. Maull and Otto Pick, eds., *The Gulf War: Regional and International Dimensions* (New York: St. Martin's Press, 1992).

تحليل دائرة العمليات المصرية للحرب العراقية - الإيرانية، وأشرنا إليه ونقدنا بعــض جوانبه[9]. وكتب ج. حســين راضي من جامعة هيوســتون ورقة بحثية بعنوان «نموذج بديل من عقلانية الدولة في السياســة الخارجية: الحرب العراقية - الإيرانيــة»[10]، اطّلعنا على وجهة نظر الباحث فــي عقلانية اتخاذ قرار الحرب على مســتوى الدولة باعتبار هذه الحرب مثلًا.

كتب ديفيد ســيغال (David Segal) دراســة بعنــوان «الحرب العراقيــة - الإيرانية: تحليــل عســكري»[11] (The Iran-Iraq War: A Military Analysis). واستفدنا من توجّهاته التحليلية التي تمثّل وجهة نظر غربية إلى هذا الصراع.

من المصــادر المهمة أيضًا فــي هذا المجــال الكتاب الذي أصدره مركز الدراســات الدولية والاستراتيجية في واشنطن (CSIS) لأنتوني كوردسمان وأبراهام واغنر بعنوان دروس الحرب الحديثة: **الحرب العراقيــة - الإيرانيــة**[12] (*Lessons of Modern War: The Iran - Iraq War*)، وترجــم إلى العربية بنســخ محــدودة التوزيع وقامت بالترجمة كلية القيادة والأركان الإماراتيــة. تخصص الجزء الثاني

(9) تم الحصول على النسخة التي لدينا من موقع مكتبة الإسكندرية الإلكتروني: <http://www.bib-alex.com>.

(10) G. Hossein Razi, «An Alternative Paradigm to State Rationality in Foreign Policy: The Iran-Iraq War,» *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 4 (December 1988).

(11) David Segal, «The Iran-Iraq War: A Military Analysis,» *Foreign Affairs*, vol. 66, no 5 (Summer 1988), pp. 946-963.

(12) Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*.

منه بالحرب العراقية - الإيرانيـــة بصفحاتها وتطوراتها وتداعياتها كلها. واعتمدنا على تحليلاته بعين ناقدة في إدراك التفسير الغربي لهذه الحـــرب. كتب الرائد و. جـــاك ديـــز (W. Jack Dees)، الرائد في الجيش الأميركي، رســـالة بحثية إلى كلية الحرب البحرية في نيوبورت بعنوان «فاعلية العراق العســكرية فـــي حربه مع إيران» (The Iraqi Military Effectiveness in the War with Iran)، اختبـــر فيها كفاءة المؤسسة العســكرية العراقية بقيادتها وهيئة أركانها وقواتها المقاتلـــة في تعاملها مـــع مختلف أوجه المواجهـــة، ومدى تطور أدائها طـــوال الحرب. واعتمدنا مـــا جاء بها من تقويـــم عام بعد إخضاعه للمناقشة.

لدليب هيرو أيضًـــا كتاب مهم بعنوان إيـــران في حكم آيات الله[13] (*Iran Under Ayatollahs*)، اطلعنا على مقتبســـات منه ومراجعة جيـــدة لغُلشـــان ديتـــل (Gulshan Dietl) بعنوان «زهـــور الخميني»، واستفدنا من تحليلاته عن دور المؤسســـة الدينية غير المنقطع في الحياة الإيرانية.

له أيضًا كتـــاب بعنوان جيران لا أصدقاء: العـــراق وإيران بعد حربي الخليـــج (*Neighbors Not Friends: Iraq and Iran after the Gulf Wars*) كتبه في وقت متأخر بعد حرب العراق وإيران، وحرب إخراج العراق من الكويت، والقناعة المستقاة من هذا الكتاب هي استمرار حالة الصراع والنزاع بين البلدين، والأهم هو اقتناعه باستمرار دور

(13) Dilip Hiro, *Iran under the Ayatollahs* (London; New York: Routledge and Kegan Paul, 1985).

رجال الدين الإيرانيين في الحياة الإيرانية بجوانبها كافة مهما حصل في إيران من تغيير داخلي. والكتاب على الرغم من غِناه بالتفاصيل يفتقر إلى التحليل المعمق والحيدة المعرفية بين الطرفين، لأنه يظهر تماهيًا بوجهات النظر الإيرانية في بعض الأحيان.

لمجيد خدوري كتاب مهم بعنوان حرب الخليج: **الخلفيات والآثار**[14] (*The Gulf War: The Origins and Implications*) ألقى فيه الضوء على قضية شطّ العرب والحدود البرية في دراسة تاريخية توثيقية مفصلة، وأفادنا الاطلاع عليها في ترصين معرفتنا بهذا الصدد.

كذلك قدّم ويل د. سويرنغن (Will D. Swearingen) دراسة مهمة بعنوان «الخلفيات الجيوسياسية للحرب العراقية - الإيرانية»[15] (Geopolitical Origins of the Iran-Iraq War)، تناولت البعد الجيوسياسي للصراع.

أما كاتب هذه السطور فله كتاب صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية بعنوان **احتلال ما بعد الاستقلال - التداعيات الاستراتيجية للحرب الأمريكية على العراق**، تناول فيه الحرب العراقية - الإيرانية ومراحلها وأسبابها. وترجمنا أيضًا كتابين مهمين لأطروحتي دكتوراه قدّمهما باحثان إيرانيان لنيل شهادة

---

(14) Majid Khadduri, *The Gulf War: The Origins and Implications of the Iraq-Iran Conflict* (New York: Oxford University Press, 1988).

(15) Will D. Swearingen, «Geopolitical Origins of the Iran-Iraq War,» *Geographical Review*, vol. 78, no. 4 (October 1988), pp. 405-416.

الدكتوراه من جامعتين أميركيتين: سوسيولوجيا المسجد الشيعيّ في الثورة الإيرانية لسيروس وكيل الزاد (جامعة بوسطن، 1987)، وتحليل اجتماعي للثورة الإيرانية لمنصور معدل (جامعة وسكنسن، 1987). وللفريق الركن رعد الحمداني كتاب بعنوان قبل أن يغادرنا التاريخ وصف فيه من بين أمور أخرى تجربته خلال الحرب العراقية - الإيرانية من مواقعه القيادية بصفته آمر كتيبة وآمر لواء في الحرس الجمهوري.

أولًا: من هو الفريق الأول الركن نزار عبد الكريم فيصل الخزرجيّ؟

إن صاحب كتاب الحرب العراقية - الإيرانية 1980 - 1988، مذكرات مقاتل الذي نحن بصدد قراءته وتحليله في دراسة تحليلية مقارنة هو بطل حقيقي من أبطال الأمة، وقائد عسكريٍ فذ امتلك حرَفية فن الحرب والعلم العسكري بأعلى مستوياته. وتمكّن بمعونة هيئة ركن كفيّة ومنتقاة من حسم هذه الحرب التي أراد أعداء العراق والأمة العربية أن تطول لتنهك البلدين المتصارعين كي تبقى في هذه المنطقة من العالم قوة واحدة ووحيدة هي الكيان الصهيوني.

عاش الفريق الخزرجيّ تجربة الحرب العراقية - الإيرانية المريرة منذ بدايتها، وكان قائدًا لفرقة المشاة السابعة (فرقة جبلية) التي كانت متمركزة في قاطع السليمانية قبل الحرب، وكُلِّفت بواجبات الأمن الداخلي. وتمت إعادة توجيهها والمناورة بها إلى قاطع الفيلق الثاني شرق بغداد، وتولّت مهمة قاطع كيلان غرب

في هذا القاطع منذ أوائل أيام الحــرب. ومنذ اندلاع الحرب حتى قيامه بكتابة الفصل الأخير منها مع ضباط القوات المسلحة العراقية وجنودها كان متعايشًا معها بإنجازاتها وإخفاقاتها.

لاحظ الفريق الخزرجيّ، وفي وقت مبكر النفق المظلم الذي أُعدّ لينزلق فيه العراق ويتورّط بحرب استنزاف طويلة تدفع باتجاه هدفين:

- تحييد قدرة العــراق الفائقــة باعتبارها عاملًا حاســمًا في المواجهة مع العدو الإسرائيلي.

- ترك الحرب لتأخذ ضريبتها الباهظة من البلدين المتحاربين اللذيــن كان احتواؤهما وإنهاكهما هدفًا، يصــبُّ في مصلحة ذلك الكيان العدواني.

عاش الخزرجيّ هــذه المعاناة وهو يشــهد العديد من زملائه وأحبائه وتلامذته من الضباط تُســفك دماؤهــم دفاعًا عن وطنهم، الأمر الذي جعل من استشهادهم خســارة نوعيّة لجيش عُرفت عنه حرَفيته العالية، فظل يفكر ويتحسّــب في محاولة منه لإيجاد إجابة عن الكيفية التي تحســم بها هذه الحــرب لمصلحة العراق، بحيث يخرج منهــا منتصرًا، محقّقًــا ردعًا واضحًا لأعدائــه، يمنعهم عن التعرض لأمنه في المستقبل.

أشــرت في تقديمي المذكرات إلى محطات مهمة ســاهمت في صوغ شــخصيته العســكرية، منها انحداره من عائلة عسكرية تمثلت في كلٍّ من أبيه العميــد عبد الكريم فيصل الخزرجي الذي

يعود إليه الفضل في غرس الشـــخصية العســكرية في نفس ولده البكر نـــزار، ثم عمّه اللواء الركن إبراهيـــم فيصل الأنصاري الذي يعود إليـــه الفضل في تربيته العســكرية وصقل شـــخصيته وإبراز صفاته وخصائصه القيادية عندما عمل تحت قيادته المباشرة حين كان الأنصـــاري قائد الفرقـــة الثانية، فرقة العراق الجبلية الباســـلة المتمرســـة في الحرب والقتال. ولكونه ضابطًا من أوائل الضباط البعثيين في الجيش العراقـــي، فإنه عاش مرحلة معاناة أليمة عندما قرّر البعث سـجن اللواء الركن الأنصاري رئيـــس أركان الجيش، ولولا أن قيّض له تأدية دور مهم فـــي التبصير بخصائصه الحقيقية والجور الذي لحـــق به، عندما أتيحت له فرصـــة لقاء نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في حينه، لربما كان القدر قد ســـلك مســـلكًا آخر مع الأنصاري.

تركت حادثة الأنصاري جرحًا عميقًا عاناه وآلى على نفسه ألّا يجعل الشـــأن الحزبي يطغى على مهمته الأولى في الحياة، أي أنه ضابط في القوات المسلحة العراقية.

ثانيًا: هل كانت هذه الحرب لازمة؟

اتســـمت هذه الحرب بأن الطرفين قاما بها بشـــكل مختلف، فمن اختيار الاحتكاك الحدودي ومحاولة إذكاء الانقســـام الطائفي في العراق وسيلةً للصراع من الجانب الإيراني المعروف عنه طول الأناة والنفس الطويل والحصول علـــى المغانم بتراكم الإنجازات الصغيرة، إلى أخذ المبـــادأة (Initiative) والاحتفاظ بها من الجانب

العراقي باعتبارها الوسيلة الأسرع والأنجع للوصول إلى الهدف وتحقيقه، وهذا إنجاز قاد في ما بعد إلى نجاح عمليات التحرير الكبرى الخمس التي رسمت نهاية هذ الحرب التي طالت أكثر مما يجب نتيجة إصرار كلٍّ من القيادة الإيرانية من جهة، وقوى عالمية في مقدّمها الولايات المتحدة الأميركية على إطالة أمدها، لتحويلها بؤرةَ استنزافٍ خطرة لقوى أكبر بلدين إقليميين في المنطقة (العراق وإيران). وهنا لا بدّ من الإشارة إلى سوء تقديرٍ لتداعيات هذه الحرب من جانب القيادة العراقية، ما ساهم في تحميل العراق دولةً وشعبًا الكثير من الدماء والأوزار والأموال. وسنشير لاحقًا إلى تخمينات عن الخسائر المادية والبشرية التي تحمّلها الطرفان في هذه الحرب بحسب التقديرات الدولية المعتمدة.

كان أخذُ العراق المبادأة بعد أن حقّق مخادعة ناجحة في بداية هذه الحرب في 22 أيلول/ سبتمبر 1980 إنجازًا على صعيد التخطيط الاستراتيجي، لكنه فشل في الاحتفاظ بها إلا لفترة محدودة، وأجبر على التخلي عنها نتيجة سوء في التخطيط اللاحق، وعدم تفهم متطلّبات مرحلة استثمار النصر.

تتحمل القيادتان السياسية والعسكرية في العراق المسؤولية عن عدم الإحاطة ببعض نواحي القصور في إعداد القوات المسلحة عند التخطيط لهذه الحرب في المراحل الأولى التي مهّدت لها، إذ تم على أساس الموقف آنذاك اتّخاذ القرار بتنفيذ الضربة الاستباقية (Preemptive Strike). وأشار الفريق الخزرجي

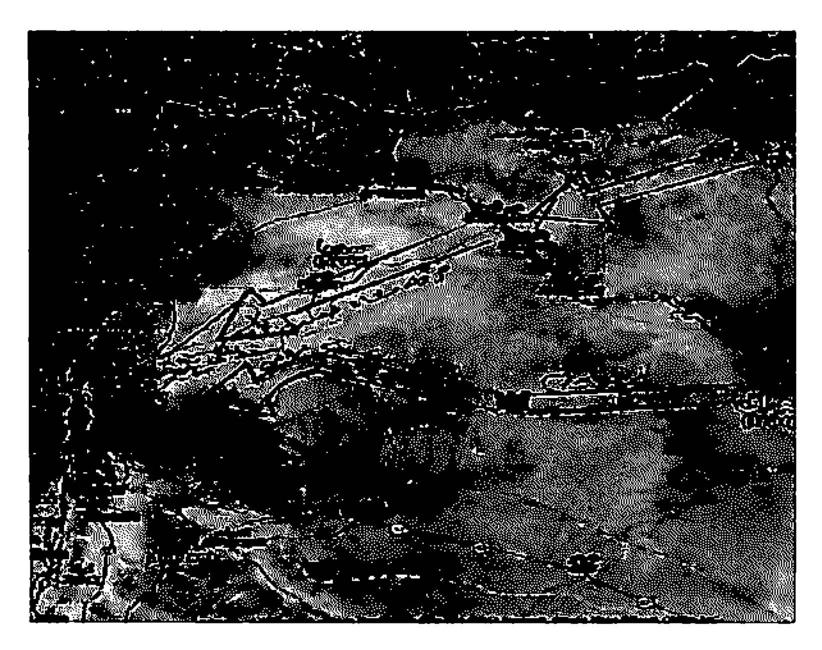
إلى ذلك صراحة، خلال المؤتمر الذي رئسه نائب القائد العام للقوات المسلحة وزير الدفاع الفريق الأول الركن عدنان خير الله، عندما استمع إلى إيجاز قائد الفيلق الأول وقادة فرقه (وهو منهم إذ كان قائدًا للفرقة السابعة)، فبيَّن الفريق الخزرجي في مداخلته أن زجّ القوات المسلحة في عملية واسعة النطاق من هذا النوع يستدعي إعادة تأهيل القوات المنهمكة بعمليات الأمن الداخلي في شمال القطر، ولمدة ليست بالقصيرة. لم تستقبل هيئة التخطيط في الأركان العامة ملحوظاته بارتياح. ولعلّ من الإنصاف بيان أن القوات المسلحة العراقية، بناءً على عقيدتها العسكرية لم تكن تُدرّب قواتها المسلحة بالنسبة إلى الحدود الشرقية إلا على العمليات الدفاعية. وسنجد في هذا الكتاب كيف أن محاور العمليات والطرق النافذة إليها لم تكن تعالج إلا من ناحية الدفاع فحسب في عملية التدريب والتهيئة التي تمارسها القطعات، وأن طرق المواصلات في هذه المحاور كانت تُدَرّس في كلٍّ من الكلية العسكرية وكليتي الأركان والحرب باعتبارها محاور تهديد محتمل يقتضي الدفاع عنها. فخط الحدود في العلاقات الدولية هو خطّ مقدس، لهذا تم تدريب القوات المسلحة على الرد دفاعيًا على كل من يحاول انتهاكه. وما كان هدف الاندفاعات العملياتية التي نفّذها الفيلقان الثاني والثالث في جبهة العمليات إلا الوصول إلى مناطق يمكن الدفاع عنها كما سنوضح ذلك في ما بعد. من هنا فإن الانتقال من الدفاع إلى التعرض، بل إلى الاستباق، وضع على كاهل هيئة التخطيط عبئًا ثقيلاً حاولت جهدها تحمُّله والخروج به بأفضل الحلول، ذلك

أن القيادة العسكرية وهيئة ركنها المتمثّلة بالأركان العامة كانتا تحاولان أن تتماهيا بما ترمي القيادة السياسية التوصل إليه من ضربتها الاستباقية، من دون أن تتم تهيئة متطلبات هذه العملية التي تُعدّ من العمليات العسكرية المتقدمة وذات المتطلبات المعقدة المتداخلة توقيتاتها ومراحلها، ومن جهة أخرى كان غياب النظر إلى العواقب بتعمق، وعدم الخوض في تفصيلات تداعيات الضربة، ومترتبات الدخول إلى أراضي الآخرين، والاكتفاء على ما يبدو بالتحول إلى الدفاع وترصين المواضع الدفاعية، وهو ما تدرّبت عليه القوات المسلحة طوال تاريخها، كان هذا كله بأمل الانتظار حتى تستجيب القيادة الإيرانية لحجم التحدي العراقي الماثل، لتتحول العملية بذلك إلى الخيار التفاوضي الذي سيضع حدًا للحرب.

صحيح أن القوات المسلحة العراقية تدرّبت في مراحل مهمة من عقد السبعينيات على عقائد قتالية جديدة في استخدام القوات، خصوصًا على الدفاع السيار، وأُدخلت عقيدة جحفل المعركة (Battle Group Doctrine)، وتدرّبت عليها قواتها المدرعة والآلية والأسلحة المتجحفلة معها ونفّذتها، لكن ذلك لا ينفي أن أساس عقيدة القتال للجيش العراقي كان الدفاع حيال عدو متعرض علينا. حتى الواجب القومي الذي كانت قطعات الفيلق الثاني المدرع تتدرب عليه، كان يقصر مهمتها على التدخل لدعم وإسناد القوات العربية (الأردنية بشكل خاص عند تعرض العدو الصهيوني لها)، وكان ما قامت به القوات العراقية في حرب

تشـــرين 1973 على الجبهة الســـورية خارقًا لمقاييس اســـتخدام القوات المســـلحة بالأبعـــاد كلها، وحقّـــق مباغتةً كبيـــرة للعدو الصهيوني. فالتنقل على سرف (جنازير) الدبابات إلى مسافة تكاد تزيد على 1000 كلم ليس بالأمر الهَيِّن ولا القياســـي (المألوف)، ولا يتطابق مع أســـس الاســـتخدام التعبـــوي (التكتيكي) للقوات المدرعة، لكن اضطرار القوات المدرعـــة العراقية إلى التنقل بهذا الشـــكل كي تُزَج في معركة الجولان وبسرعة، بعد أن نجح العدو الإســـرائيلي في خرق الدفاعات الســـورية والتقدّم صوب دمشق، جعَلَ من اللجوء إلى هذا الخيار أمرًا مطلوبًـــا مهما كانت النتائج التي ســـيخلّفها على الوضع الفنـــي والكفاية القتاليـــة للعجلات المدرعة من دبابات وناقلات أشـــخاص مدرعـــة وعجلات قتال مدرعة، الأمر الذي ســـتتم دراســـته وتحليله وتداركه بعد انقشاع دخان المعارك. لذلك أجهض وصول القوات المســـلحة العراقية المدرعة والجبلية واشـــتباكها مع العدو بوقت قياســـي مخططاته. ولولا السياســـة التي وضعت حدًا لاشـــتراك القوات العراقية في معركة الجولان بســـبب قبول القيادة الســـورية قرار وقف إطلاق النار من دون التشاور مع القيادة العراقية، لكانت مخرجات حرب تشرين على الجبهة الشـــمالية من هذه الحرب شـــيئًا آخر مختلفًا تمامًـــا. تُبيّن لنـــا الخريطة المبيَّنة أدناه شـــكل المناورة الواســـعة التي تحركت عليها القوات المســـلحة العراقيـــة لتصل إلى جبهة المواجهـــة في الحـــرب العربية - الإســـرائيلية الرابعـــة في جبهة الجولان.

الخريطة (1-1)
مناورة القوات العراقية للوصول إلى جبهة الجولان



من جانب آخر كانت القيادة السياسية المتمثِّلة بالرئيس ومجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية للحزب الحاكم قد أيقنت أن هذه الحرب لن تكون حربًا طويلة لنشوء قناعات سياسية ترسخت لديها قرنت الموقف الدولي حيال الوضع بين العراق وإيران بالموقف الدولي حيال الوضع في الصراع العربي - الإسرائيلي، أي إن العالم كان يتدخل لفرض وقف إطلاق النار عبر قرار ملزم من مجلس الأمن خلال مدة لا تتجاوز الخمسة عشر يومًا من اشتعال شرارة الحرب بعد التأكد من تحقيق الكيان الصهيوني أهدافه. في هذا الصراع الذي نحن بصدد تحليله حصل تحرك دولي، وأُصدر

قرار عن مجلس الأمن رقمــه 479/ 1980، لكن من دون تدعيمه بإرادة سياســية تفرض وقف إطلاق النــار. صحيح أن فرض وقف إطلاق النار في الحروب العربية - الإسرائيلية كان يتم دائمًا بعد أن تحقق إســرائيل أهدافها، لكن الدول العربية كانت تقتنع بأن قبولها وقف إطلاق النار هو الخيار الأفضــل لديها بعد اندحار قواتها أمام العدو، لأن الطرف الخاسر وفق هذه المعادلة يسعى عادة إلى طلب وقف النار والقبول به فور إعلانه[16].

كان تقدير القيادة السياســية العراقية أن إيران ستكون الخاسرة في هذه المواجهة بعد الضربة الاســتباقية التي تشبه ضربة الخامس من حزيران/ يونيو الإسرائيلية من بعض الوجوه (ضربة جوية مركزة أعقبها اندفاع مدرّع عزوم للوصول إلى أهداف ذات قيمة استراتيجية خطرة تنقل المعركة إلى أرض العدو). كانت هذه هي أركان نظرية الأمن الإسرائيلية، ولذلك قدّرت القيادة العراقية أن هذا ما سيحصل بالضبط بعــد الاندفاعة الأولى، والتوقف على أهداف اســتراتيجية خطرة وفي وضع يُمكّــن العراق من الدفاع، لكن مــا فات القيادة العراقية ههنا هو عدم وجود تحليل نفسي للقيادة الإيرانية، أي قيادة الخميني التي تملك كمًا هائلًا من تزاوج التراكمات النفسية السلبية والدوغمائية المذهبية.

---

(16) نص القــرار 479/ 1980 على أن يمتنع البلدان عن اســتخدام القوة، وأن يحــلا خلافاتهما بالطرائق الســلمية، وأن يســعيا إلى طلب وســاطة المنظمات الدولية والدول لحــل خلافاتهما، وأن تمتنع الدول عن إمداد البلدين بما يســاعد في اســتمرار النزاع، وأن يتولى الأمين العام مســؤولية متابعة الحالــة وإبلاغ مجلس الأمن خلال 48 ســاعة بما ســيؤول إليه الوضع. انظر نص القرار على موقع الأمم المتحدة الإلكتروني: <http/www.un.org>.

كان يمكــن أن تقبل قيادة إيرانية مدنيــة بوقف إطلاق النار لو كانت موجودة وأن تركن إلى التفاوض لحلّ الإشكال، كما يحدث عادة بين الدول المتحاربة، بســبب الخلل البارز الذي كانت تعانيه قواتها بعــد الثورة. وهي حالة قدَّرت القيــادة العراقية على ما يبدو أنها ستكون السبب الرئيس في تحقيق نصر عراقي سريع يضع أمام القيادة الإيرانية خيارًا واحدًا فحســب، هو خيار الركون إلى السلم والدخول في مفاوضات لحلّ الإشــكالات الحدودية والسياســية والدعوية بين الطرفين.

إن دراســة النزاعات العالمية الســابقة وتحليلها بعمق وأخذ الدروس المســتنبطة منها كانت ســتدلل أنه ليــس نجاح التعرض العسكري بالقوات المســلحة فحسب هو ما سيؤشــر إلى عوامل النجاح، فالاندفاع الألماني العزوم تجاه بولندا والســويد واحتلال النمســا، واقتحام الدفاعات البلجيكية الفرنســية على خطّ ماجينو، والاندفاع إلى احتلال بلجيكا وفرنسا بعد ذلك، لم تحقّق الوصول إلى أهداف المخطّــط الألماني من هذه الحرب التي كان يروم منها التسيّد على أوروبا باعتباره قوة وحيدة، كما لم تُسعف الألمان كل عملياتهم التعرضيّة واسعة النطاق التي تمتعت القوات الألمانيّة فيها بالحصافة المعروفة عن هيئة الركن الألمانية، مثل الاندفاع والدفاع على خطّ ستالينغراد - موســكو - لينينغراد (سان بطرسبرغ)، ولا احتلال النرويج، أو الإنزال في كريت جوّا، ولا مطاردة البريطانيين في معارك شمال أفريقيا حتى العلمين على مشارف الإسكندرية. لم تكتب هذه العمليات العزومة كلها نهاية الحرب بل وسَّعت نطاقها، وأدخلت مقاتليــن جددًا في الحــرب بإعلان الولايــات المتحدة

الحرب علـــى ألمانيا واليابـــان. واليابان هي الأخرى مثلٌ ســـاطع على أن الانتصار العســـكري ليس وحده الذي يرسم نهاية الحرب، إذ تمكّنت اليابان عمليًا من الســـيطرة على مسرح عمليات المحيط الهادئ (الباســـفيك) ودمرت زهرة القوات البحريـــة الأميركية في معركة بيرل هاربر الشهيرة، ثم احتلّت القلعة الإمبراطورية البريطانية في سنغافورة ووصلت عمليًا إلى حدود الهند.

هنالك شـــيء من التشـــابه بين ســـلوك هيئتي الركن العراقية والألمانية حيال قيادتيهما السياســـيتين عند تخطيطهما للحرب في هاتين الحالتين، وهو أن مـــن قرر التعرض هي القيادة السياســـية، وهذا من صلـــب صلاحيتها، لكن كان يجـــب أن تُناقش رؤية هذه القيادة للتأكد هل يمكـــن تحقيق هدف الحرب بالإمكانات المتاحة أم لا، وهو أمر نرى أن هيئة الركن العراقية لم تقم به كما يجب، إذ لم تكن مشـــورتها على ما يبدو عاكسةً الوضع الحقيقي لمخرجات حرب مع جار، كان علـــى الرغم من ضعفه يتمتـــع ببعض عناصر القوة التي ما زال يحتفظ بها بعد إضعاف القوات المسلحة الإيرانية، وتصفية قياداتها بعد الثورة[17].

ينبغي ألا ننســـى أن إيران تتمتع بفائقية تـــكاد تصل إلى 3:1 في كل من المســـاحة وعدد الســـكان، وأن مراكز التمركز السكاني

---

(17) للاطلاع على أداء هيئة الركن الألمانية، انظر: David J. A. Stone, *Twilight of the Gods: The Decline and Fall of the German General Staff in World War II* (London: Conway, 2011); Larry H. Addington, *The Blitzkrieg Era and the German General Staff, 1865-1941* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, [1971]), and Walter Goerlitz, *History of the German General Staff, 1657-1945*, Translated by Brian Battershaw; Introduction by Walter Millis (Boulder, Colo.: Westview Press, 1985).

الإيرانيـــة بعيدة عن الحـــدود الدولية مع العراق بعـــدًا بيّنًا، ففي ما عدا عبادان والمحمرة، تتواجد المـــدن الأخرى الكبرى في العمق الإيراني على أبعادٍ أقلّها 180 كلم تقريبًـــا. في حين أن كل المدن العراقية الرئيسة تقع على بعد بســيط عن الحدود الدولية، فالبصرة ثاني أهم مدينـــة عراقية تكاد تحاذي الحـــدود، ولا تبعد بغداد عن الحدود إلا مئـــة كيلومتر أو ما يزيـــد قليلًا على الطريـــق (ثمانون كيلومترًا كمســـافة شـــعاعية جوية)، ويصدق هذا على الســـليمانية وكركوك حتى الموصل. هـــذه حقيقة كان يجب أن يتم حســـابها، وظلّت المدن العراقية المهمة، البصرة منها تحديدًا، تحت القصف المدفعي الإيراني طوال مدة الحرب، ولم تُعاقَب المدن الإيرانية إلا بعد اندلاع حـــرب الصواريخ بين البلدين عندمـــا بادرت إيران إلى ضرب مدن العمق العراقي، ومنها بغـــداد بالصواريخ التي حصلت عليها من ليبيا أولًا، ثم من سورية وكوريا في ما بعد.

يعني كل ذلك أنه مهما كانت القدرة العسكرية القتالية المتاحة عظيمة، فإن هنالك عوامل مهمة أخـــرى قد لا تكون ظاهرة للعيان يجب أخذها بالاعتبار. من هنـــا توصف الحرب بأنها علم وفن في الوقت نفســـه، هي علمٌ لأنها تخضع للقوانين العلمية في استخدام معداتها، وفن لأن مخرجاتها تعتمد كثيرًا على أدوات ووسائل فعل هيئات التخطيط فيها، وشخصيّة قائدها ومهاراته القيادية التي سنجد في كاتـــب المذكرات مثلًا بـــارزًا عليها. ويدخل فـــي هذا المجال دراســـة عادات وردات فعل العدو، ومدى توقعها ورســـم الخطط لمواجهتها، وكذلك دراســـة الموازين الدوليـــة، وأنماط العلاقات الدولية والإقليمية بالنسبة إلى طرفي الصراع، نحن والعدو، وكذلك

مدى تيسـر مصادر تجهيز السلاح وضمان أمن واسـتمرارية هذا الإمداد. وفي هذه الحرب سـنجد أمثلة واضحـة على كيفية لجوء البلديـن المتحاربين إلى طيف واسـع من الـدول الصناعية التي وجدت في تقاتلهما فرصة ثمينة، لتشغيل مصانعها واليد العاملة فيها على حسـاب الدماء التي سالت من الطرفين للوصول بالحرب إلى نهاية ترضي قياداتهما. وهذا موضوع واسـع يتطلب الكثير لدراسته وتحليله وسبر أغواره. ما فات القيادة العراقية هنا، وما سيفوتها في عملية مقبلة ستتخذ قرارها بعد عشـرة أعوام من اتّخاذها قرار الرد على العدوان الإيراني بالاستباق (إذ ستتخذ قرارًا آخر بتوجيه ضربة اسـتباقية من نوع آخر)، هو التحليل المعمـق للوضعين الإقليمي والدولي، وللوضع النفسـي والمعرفي للقيـادة الإيرانية، ولكيفية استنباط وسـائل وطرائق تهدف إلى التوصل إلى النتيجة ذاتها التي هدف إليها الاستباق، وهي قبر أحلام رجال الدين الإيرانيين بتصدير ثورتهم إلى العراق والخليج العربي لكن بوسائل أخرى.

فضلًا عـن الإيمان بقـدرة الاسـتباق بفرض أمـر يقود إلى التفاوض، يبـدو أن تصورًا ما كان يجول في ذهـن القيادة العراقية بأن العالم لن يصبر على تعرض نحـو 25 في المئة من الاحتياطي النفطـي العالمـي، أي حصة العـراق وإيران مجتمعتيـن، للخطر بسبب الحرب، وكذلك انقطاع ما ينتجه البلدان عن السوق النفطية العالمية لفترة أكثر من أسبوعين، متناسية أن لا العراق ولا إيران هما بمنظور إسرائيل بالنسبة إلى الغرب، ومتناسية أيضًا أن البلدين بعد شـنهما الحرب بعضهما على بعض، وبغض النظر عن الدوافع، قد قدّما نفسيهما في هذه الحرب كبشـي فداء لتحقيق الاحتواء الذي

سعت الولايات المتحدة إلى تحقيقه عليهما معًا[18]. وسيتم التوسع في معالجة هــذه القناعة في ما ســيأتي من تحليل هــذه الحرب، لكن ما يمكــن أن يقال في هذا المقام هــو أن العراق بعد أن أدرك أن هنالــك دفعًا إلى إطالة مــدة هذه الحرب بما يتجــاوز إمكاناته وبقاءه أيضًا بادر إلى الموافقة على أي جهد يســعى إلى إنهاء هذه الحرب والتحول إلى التفاوض الســلمي، لحل هذا النزاع المرير. وكان كلا الجانبين المتحاربين يتحدث عن دفاعه المســتميت عن أرضه وقيمه، وهي حالة كان يجب أن تفســح المجال للولوج إلى عملية ســلمية تفاوضية تنهي الصراع، لو لم تتحكم بها «الغيبيات» وتراكمــات الماضي التي تنظــر إلى الآخر العراقــي «بصفته كافرًا يجب قتاله»[19]. وتتكشف لنا هنا حقيقة أن الجانب الإيراني تشبث بالحرب وإطالتها حتى تدمير نظام الحكم العراقي واجتثاث شــأفة رئيسه الذي تمت شيطنته [اعتباره شيطانًا] وتكفيره[20].

---

(18) انتشــرت أقاويل كثيرة عن أن العراق خاض هذه الحرب نزولًا عند إرادات أجنبيــة أغرته بها، وبهذا فإنه شــنّها نيابة عن آخريــن. الثابت للمراقبين الذين عايشــوا الأحداث من داخل العراق أن هذه الادعاءات ليست صحيحة أبدًا، وأن قرار الحرب كان عراقيًا اتخذه الرئيس اســتنادًا إلى قناعات ارتقت إلى حــد أن الكيان الوطني العراقي قد أضحى مهددًا فعلًا بهجوم إيراني وشــيك نتيجة ما تبثه الدعاية التي يشرف عليها رجال دين إيرانيون لا يعرفون منّ متطلبات العلاقات الدولية شــيئًا، وأصمّوا آذانهم عن نصائح مخلصة قدمها دبلوماسيون وسياســيون وطنيون، إلا أنهم لم يحظوا باحترام رجال الدين كونهم ليبراليين أو يســاريين وطنيين، وكمثال على ذلك، انظــر: Razi, «An Alternative Paradigm to State Rationality».

(19) انظــر أيضــاً: W. Jack Dees, *Iraqi Military Effectiveness in the War with Iran*, Middle East Special Studies, 1989-1991 supplement; 4. Special Studies Series (Newport, RI: Naval War College, [1990]), p. 15.

(20) انظر: مقابلة مع الرئيس الإيراني الأسبق أبو الحسن بني صدر ضمن برنامج =

من المفيد الإشـــارة إلى أن مواقف الإمـــام الخميني المضادة للرئيس صدام حســين كثيرة، نكتفــي بإيراد موقف أشـــار إليه أبو الحســـن بني صدر في مقابلته مع شـــبكة الجزيرة فـــي 17 كانون الثاني/ يناير 2000، وبيَّن فيه أن الرئيس العراقي صدام حسين بعث مندوبًا مخوّلًا يحظى باحترام رجال الدين هو حفيد المرجع الأعلى الشيعي الأسبق السيد أبو الحســـن الأصفهاني الذي قال لهم (على لسان الرئيس صدام كما يبدو): «.. ها قد انتصرت الثورة الإسلامية وتخلصتم من الشـــاه، دعونا نشـــيّد الســـلام بين بلدينـــا»، أجاب (الخميني): «لا، إن نظام صدام محكوم عليه بالســـقوط، وسيسقط خلال ستة أشهر على الأكثر، وكي نعفو عنه (صدام) أرسل مبعوثه هذا».

كوني عراقيًا لا بدّ لي من الإشـــارة إلى أن هنالك قناعة واسعة اســـتقطبت العراقيين هي أن العراق خاض حربًا مشـــروعة للدفاع عن نفســـه وهويته وقيَمه، وما الأمن القومي في أبســـط حالاته إلا نجاح الأمة في الحفاظ على ســـيادتها وقيَمها وهويتها ورفاهها[21].

= «زيارة خاصة»، تحت عنوان «الثورة الإيرانيـــة وأمريكا والعرب»، قناة الجزيرة، الدوحة، تاريخ 17/ 1/ 2000.

(21) مفهوم الأمن القومي مفهوم رجراج كثير التطور عندما تناقشه مدارس فكرية متعددة، وأصل المفهوم الجامع بين العديد من المفكريـــن هو قدرة الأمة (الدولة) على المحافظة على سيادتها وســـلامة إقليمها وقيمها. وهو في الحقيقة حصيلة الفعل المتأتي من تفاعل الدفاع والردع والجهد الاستخباري والسياسة الخارجية بما يصبُّ في مصلحة ســـيادة الدولة ورفاه مواطنيها. كذلك عرّفه حامد ربيع في كتابه نظرية السياسة الخارجية بأنه الحد الأدنى الذي تسمح به دولة ما لحماية وجودها الذاتي. انظر: حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، 1969)، ص 29.

وكانت قيم الأمة والهوية الوطنية العراقيـــة ورفاه المواطن العراقي كلها مهددة بالطوفان الذي كان يهدد البوابة الشـــرقية للأمة بسبب الأهـــداف والخطط المذهبية التـــي درج حكّام إيـــران الجدد على محاولة تصديرها إلى العراق[22]، كغطاء للســيطرة عليه ووضعه في مجال نفوذهم، بما يخدم التوســـع القومـــي الجديد تحت طلاءات مذهبية ودينية.

أصدرت وزارة الخارجية العراقية كتابًا أجملت فيه التهديدات والخروقات الإيرانية للســـيادة العراقية منذ استلام جماعة الخميني السلطة[23]. والمفارقة هنا أن الدواعي الحقيقية لاندلاع الحرب بين

---

(22) لعل مـــن الجدير بالذكـــر أن كل ما كان يحـــذره العراق من تســـلّل إيران وأفكار ثورتها إلى العراق، وهو ما كان أحد أســـباب الاستباق العراقي، حصل بعد الغزو والاحتلال الأميركيين، وأي ناقـــد محايد ينظر إلى ما أضحى عليه الوضع في العراق بعد عشر سنوات من هذا الاحتلال بمعونة وتســـهيلات إيرانية لا تنكرها إيران ولا الولايات المتحدة، يرى عمق النفوذ الإيراني المؤثر فيه الآن، حيث تجاوز نفوذ الولايات المتحدة الأميركية كثيرًا وفرض الطائفية والتصفيات الدموية وربما الحرب الأهلية في وقت مقبل. انظر تصريحات محمد علي أبطحي نائب الرئيس الإيراني حينئذٍ في هذا الشأن. وكذلك انظـــر: Trita Parsi, *Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran, and the United States* (New Haven: Yale University Press, 2007).

(23) بعد انـــدلاع الحرب بين العـــراق وإيران في أيلول/ ســـبتمبر 1980 صدر قرار مجلـــس الأمن رقم 479/ 1980 الـــذي دعا فيه البلدين المتحاربيـــن إلى المبادرة بوقف إطلاق النار في ما بينهما والعودة إلى الحـــدود الدولية المعترف بها والدخول في مفاوضات لحل الخلافات القائمة. جاء هذا القرار بعد أســـبوع واحد فقط من ردّ العراق الواسع النطاق على العدوان الإيراني المستمر على أراضيه. وافق العراق على هذا القرار ورفضته إيران. وقال الخميني في خطاب له بهذا الصدد ما يلي: «إن هدف الحرب معاقبة قادة البعث المجرميـــن وإن حزب البعث تولّى الســـلطة ليس عن طريق ثورة إســـلامية مشروعة وإنما من خلال عمليات عسكرية غير قانونية وإن أتباع الشيعة في العراق يجب أن يلجـــأوا إلى الثورة كما فعل إخوانهم في إيران» انظر: روح الله الموســـوي الخميني، الحكومة الإسلامية، ترجمة حامد الغار (بيركلي: [د. ن.]، 1981).

العراق وإيران غابت عن أذهـــان الباحثين الغربيين. ففي ورقة كتبها إيف غريغوري غاوس الثالـــث (F. Gregory Gause III) تحت عنوان «قرار العراق الدخول إلى الحرب 1980 - 1990» في إشارة إلى الحرب العراقية - الإيرانيـــة موضوع هذا الكتاب، وحرب الدخول إلى الكويت في 2 آب/ أغسطس 1990، نراه يتجاهل هذا التهديد، ربما عن عمد أو عن عدم إدراك الدواعي الحقيقية لخوض العراق الحربين آنفتي الذكر. فالشعور بالتهديد الحقيقي من الثورة الإيرانية وسياستها المعلنة وغير المخفية في تصدير الثورة إلى العالم العربي بدءًا بالعراق، كان واضحًا في أحاديث القـــادة الإيرانيين من أعلى مســـتوى، متمثلًا بالخميني مرورًا برئيس الجمهورية أبو الحســـن بني صدر، ثم بقية مســـؤولي الدولة الإيرانية الجديدة وليدة الثورة. كل أولئك المســـؤولين بيّنوا بوضـــوح لا يقبل الشـــك أن هدفهم المقبـــل هو العراق. الهـــدف إذًا كان الكيان وليـــس الرئيس صدام حسين ونظامه[24].

---

(24) بدأ غريغوري غاوس ورقته المشـــار إليها أعلاه مـــن تحليل لخطاب ألقاه الرئيس العراقي الراحل صدام حســـين يوم 17 تموز/ يوليو 1997 في ذكرى 17 تموز/ يوليو التي ســـيطر فيها البعث على الســـلطة، وبعد تمثله لما جاء فـــي الخطاب، بيَّن أن معنى الانتصار في إدراك الرئيس هو بقاؤه في السلطة. ويتساءل كيف أن الرئيس العراقي يدّعي انتصارًا في حالة الحرب العراقية - الإيرانية على حساب الخسائر التي أحاقت به، متجاهلًا حقيقة ما جرى في ختام هذه الحـــرب التي لم يكن لا الخميني ولا دوائر مهمة في الغرب تريد لها أن تنتهي. ولم تكـــن لتنتهي إلا بانتصار عراقي بيِّن. انظر: F. Gregory Gause, «Iraq's Decisions to Go to War, 1980 and 1990,» *Middle East Journal*, vol. 56, no. 1 (Winter 2002), pp. 47-48.

وعن إطروحته في شأن الحرب انظر: Stephen Van Evera, *Causes of War: Power and the Roots of Conflict*, Cornell Studies in Security Affairs (Ithaca: Cornell University Press, 1999), and Dale C. Copeland, *The Origins of Major War*, Cornell Studies in Security Affairs (Ithaca: Cornell University Press, 2000), chap. 4.

يرى هؤلاء أن تآكل قدرة الدولة قد يؤدي إلى الحرب.

وضعت الحالة المستجدة في إيران الحكومة العراقية في مأزق دبلوماسي وأمني خطر، بعد القضاء على نظام الشاه الذي نجحت الحكومة العراقية في بناء أسس علاقات مصلحة وحسن جوار معه بعد تضحيات كبيرة، منها التنازل عن نصف شطّ العرب من نقطة التقائه بالحدود الدولية بين العراق وإيران حتى مصبه في الخليج العربي عند رأس البيشة العراقية. ومع بداية التجاوزات والتعديات الإيرانية التي حرّض عليها رجال دين إيرانيون، لا يرون في الحياة إلا الانتقام ممن تسبب في مظلمة ومأساة الحسين بن علي في معركة وادي الطف، وهو أمر يشمل في نظرهم العراقيين جميعًا سنّتهم وشيعتهم على حد سواء[25]، بادرت الحكومة العراقية إلى إعداد ملفٍّ وثائقي قدمته إلى السلطات الإيرانية، توضح فيه طبيعة العلاقات التعاقدية بين العراق وإيران في شأن الحدود المشتركة ومساراتها والأراضي العراقية التي ما زالت تحت سيطرة القوات الإيرانية والتي يجب إعادتها إلى العراق وفق اتفاقية الجزائر في عام 1975، عسى أن تكون هذه الوثائق كافية لتسترعي نظر المسؤولين الدبلوماسيين الإيرانيين الجدد إلى طبيعة الموقف الحدودي وتاريخه. وأودعت الخارجية العراقية نسخة من هذه الوثائق لدى الأمم المتحدة، وأصدرتها تحت عنوان «النزاع العراقي الإيراني - ملفّ وثائقي» أصدرته اللجنة الاستشارية في الوزارة في

(25) هنالك مثل يتندر به العراقيون هو أن الإيرانيين يقولون في أحد أمثالهم «شيعة عراق سنت أست، سنت عراق كافر أست»، أي إن شيعة العراق هم سنة بنظر الإيرانيين، وسنة العراق كفرة، ولا نعلم مدى صحة هذا المثل إلا لإظهار مدى المبالغة السلبية في نظر الطرفين بعضهما إلى بعض.

كانون الثاني/ يناير 1981، أي بعد ثلاثة أشـــهر من اندلاع الحرب بين البلدين[26].

نعتقد أن ما تعرّض له العراق بعد الغزو والاحتلال الأميركيين وفَتْحَ أبوابهِ مشــرعةً للنفوذ الإيراني يؤكد أن الاستهداف الإيراني للعراق بعد الثــورة الإســلامية كان للعراق ككيــان وليس لنظام الحكم ولا لشــخص الرئيس، وســنمر في أثناء هذا التقديم على محطات تظهــر فيها أهمية هذا العامل بشــكل جلــي[27]. ورصد عدد من الكتّاب والباحثين الإيرانييــن إصرار الإمام الخميني على اســتهداف العراق ودول عربية أخرى كهدف لثورته (الإسلامية)، منهم تريتا بارســي (Trita Parsi) التي بيّنت في كتابها **تحالف الغدر**، أن الخميني بدلًا من الســعي إلــى الفوز بأصدقاء عــرب، لم يفز نتيجة سياســات حكومته إلّا بأعداء، وأن تحديه حالة الاســتقرار الراهنة في الإقليم حــوّل إيران إلى دولة منبوذة يخشــاها الجميع ويتحاشــاها[28]. لذلك فإن الحرب الدفاعية التــي خاضها العراق طوال ثماني ســنواتٍ داميةٍ تمتلك الأســاس الشرعي والأخلاقي، وتندرج تحت هدف واجب الحكومة تجاه شــعبها في حماية أمنه ورفاهه. وإذا مــا كان واضحًا لدينا أن إيران كانــت تهدف بالفعل إلى تصدير ثورتها إلى المشــرق العربي والجزيرة والخليج كجزء من مشــروعها الكوني الإســلامي، فإن العراق قد هدف من حربه

---

(26) انظر: العراق، وزارة الخارجية، اللجنة الاستشارية، النزاع العراقي الإيراني: ملف وثائقي (بغداد: اللجنة الاستشارية، 1981).

(27) الخميني، الحكومة الإسلامية.

(28) Parsi, p. 97.

الدفاعية إلى إيقاف مد تصدير الثورة عند حدوده الشـرقية، ومنعها من العبور بأفكارها لتغيير قناعات قطاعات من المجتمع العراقي قد تتأثر بهذه الطروحات[29]. ومع ذلك فإن ردة الفعل العراقية على الأعمال الإيرانية العدوانية التي بدأت يوم الرابع من أيلول/ سبتمبر 1980 حين استخدمت إيران أرضًا عراقية محتلة في (زين القوس) لقصف أراضٍ ومدن ومنشآت نفطية عراقية في خانقين ومندلي والنفط خانة، أخذت يوم 22 أيلول/ سبتمبر 1980 شكل العملية الاستباقية، لأنه استقر في ذهن القيادة السياسية العراقية أن الهجوم الإيراني قد أصبح وشيكًا[30].

مع ذلك فإن أحد المعارضين العراقيين السابقين من حزب الدعوة الشيعي أشار بعد انشقاقه عن الحزب وعن تسييس التمذهب

---

(29) ترسخت قناعات قبل الحرب العراقية – الإيرانية، وبعد اندلاعها لدى الخميني والدوائر القريبة منه، كما لدى المراقبين والباحثين الغربيين على السواء باحتمال انضمام الرأي العام (الشيعي) في العراق إلى دعاوى الثورة (الإسلامية) التي قادها الخميني وإعلانها في العراق. لا يُنكر أن دوائر قليلة من المسيسين طائفيًا في العراق الذين مثّلهم حزب الدعوة لجأوا إلى شيء من هذا القبيل، واتخذت الحكومة العراقية إجراءات قمعية وتصفوية شديدة بحقهم، لكن الرأي العام في الوسط العربي الشيعي في العراق لم يكن كذلك، بل قاتل الشبان الشيعة في هذه الحرب إلى جانب وطنهم، وانحازوا إليه دونما إكراه. وعدا من وقع أسيرًا بيد القوات الإيرانية الغازية في ما بعد، لم يهرب إلى جانب (العدو) إلا نفر ضئيل لا يكاد يذكر.

(30) ناقش أنتوني كوردسمان وأبراهام واغنر في كتابهما دروس الحرب الحديثة (الجزء الثاني): الحرب العراقية – الإيرانية وفي القسم الثاني من هذا الجزء الأحوال التي شكلت الحرب وأجملاها من وجهة نظرهما بأربعة عوامل هي: الحساسيات العربية الفارسية، والنزاع على الممرات المائية، والسعي إلى الهيمنة والنفوذ في الإقليم، والاختلافات الدينية (الطائفية). انظر: Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War*.

الشـيعي، وهو أحمد الكاتب، إلى أنه كانـت هنالك مجموعة من الثوار غير المعمميـن ومن المثقفين القريبين مـن الإمام الخميني ممن كانوا يدفعون باتجاه تمتين العلاقة بالعراق، عملًا بأن البلدين جاران وأن العراق اسـتضاف الإمام لمدة أربعة عشر عامًا من دون تضييق، بالضد من قطاعات من رجـال الدين ومن الحرس الثوري الإيراني الـذي كان قيد النشـوء، دفعت وبقوة إلـى تأزيم العلاقة بالعراق. وبيّن أحمد الكاتب أن الذي انتصر من وجهتي النظر آنفتي الذكر هو خيار التأزيـم، وبهذا دُفعت مجاميع مـن حزب الدعوة والمعارضيـن العراقيين المبعدين إلى التمركـز على حدود العراق الجنوبية الشـرقية والتسـلّل إلى داخل العراق والقيام بعمليات كر وفر، وقد تكون هذه العمليات هي التي أحدثت القناعة بأن العراق سيكون الهدف الأول لتصدير الثورة[31].

في مناقشـته عقلانية اتخاذ قرار الحرب بالنسـبة إلى العراق وإيران بيّن ج. حسين راضي في دراسـته: «نموذج بديل لعقلانية الدولة في السياسـة الخارجيـة: الحرب العراقيـة - الإيرانية» أن اللجوء إلى الحرب الوقائية في مسـعى لدرء حـرب أصبح يقينًا أنها ستُشـن، هو أمر مبرر، واستند إلى بسـمارك الذي كان يعتقد أن الحـرب الوقائية (المانعة) تشـبه «القيام بالانتحـار خوفًا من الموت»، إلا أن بسمارك نفسه يستمر قائلًا: «إذا ما كان العدو يعد

(31) انظـر: عبد الوهاب القصـاب، «النفـوذ الإيراني في العـراق: التحديات والأبعاد،» فـي: محمد حامد الأحمري [وآخرون]، العرب وإيـران: مراجعة في التاريخ والسياسـة، تحرير عزمي بشـارة ومحجوب الزويري (بيروت؛ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 151-152.

العدة لشن الحرب، سيصبح من الحمق عدم مبادرته بحرب وقائية مانعة»[32]. وعلى الرغم من أن ج. حسـين راضي كان في نقاشاته اللاحقة ميّالًا إلـى اعتبـار أن القصف المدفعـي الإيراني لمدن وبلدات ومنشـآت عراقية لم يكن في حقيقته مؤشرًا على عدوان إيراني لاحق واسـع النطاق، إلا أننا نعود إلى الأخذ بوجهة نظره المرتكزة على جدلية بسـمارك، بضرورة شنّ الحرب عند الاقتناع بأن هجومًا معاديًا سـيقع. وهذا مـا كانت عليه قناعـات القيادة العراقية، كما سنرى في ما سيأتي.

يرى أنتوني كوردسمان وأبراهام واغنر في كتابهما دروس من **الحرب الحديثة**: «ومما تجدر الإشارة إليه أن قيام العراق بغزو إيران لا يُعد لأول وهلة بمثابة بيّنة تشـكل نيات عدوانية، أو ارتكاب إثم لاندلاع القتال. كما أن إيجاد قـدرات وإمكانات طارئة لغزو إيران لا يمكن اعتباره تحت هذه الأحوال جهـودًا أو احتمالات متعمدة إما لغزو إيران أو السـيطرة عليها. ومن هذا المنطلق فإن مثل هذه الاسـتعدادات تُعد بمثابة إجراء يتسـم بالحصافة. وفوق ذلك فإن اسـتعداد العراق للغزو والتنفيذ الأولي لهجومه غالبًا ما أثبت عدم ملاءمته أو اسـتيفائه لكافة المقوّمات، لأنه من جانب الصدقية فإن تحوّل العراق من الرد على اشـتباكات الحدود في أيلول/ سـبتمبر 1980 إلى التعجيل في تنفيذ خطة الغزو قد اتسـم بتنفيذ خطة لم يُعد لها الإعداد والتحليل الكافي على الإطلاق»[33].

---

(32) Razi, pp. 709-711.

(33) أنتوني هـ. كوردسـمان وأبراهام ر. واجنر، **دروس الحرب الحديثة**، ترجمة كلية القيادة والأركان، الإمارات العربية المتحدة، ص 41.

كانت هنالك جملة إجراءات يجب أن تؤخذ بالاعتبار عند التخطيط للضربة الاستباقية وتنفيذها، ومن أهم هذه الاعتبارات اختيار الأهداف وتحليل قيمتها الاستراتيجية بشكل أكثر حصافة، والتوقف عند الاندفاع البري إلى أهداف يمكن الدفاع عنها، وتأمين وحماية أجنحة القوات المندفعة، وتأمين التماس في نقاط تكون المسؤولية فيها واضحة لمن يتولّى حمايتها. وفوق كل هذا عدم تدخل أحد في إجراءات القائد الميداني المسؤول عند قيادته قطعاته، ومنع القيادات السياسية والحزبية من التدخل في الشأن العملياتي. من سلبيات هذه المرحلة في الحرب العراقية - الإيرانية أن الكل فيها تحوّل إلى جنرال يرسم ويخطّط ويفتي في مجريات الحرب، وكيفية خوض المعارك. ومن الملاحظ أنه ومنذ وقت مبكر بدت سمات واضحة لهذه التدخلات، بحيث أدى تراكمها إلى كارثة انهيار الدفاعات العراقية في قاطعي عمليات الفيلقين الثالث والرابع، وإجبار القوات العراقية على الانسحاب إلى الحدود الدولية التي فتحت أراضي العراق للتعرض المعادي لها وفقدان قطاعات مهمة وخطرة فيها.

بعد مرور ست سنوات على الحرب، وفي ضوء احتلال الإيرانيين الفاو في شتاء 1986، بدأت في الأركان العامة العراقية وقفة تأمل وتحليل لما جرى، وكان للضغط المعنوي المتولّد من ضياع الفاو، وللضغط الشعبي لاستعادتها، دور مهم في إعادة الحسابات، وإعادة تقويم الموقف من الحرب واستمرارها. كان الفريق الأول الركن عبد الجواد ذنون رئيسًا لأركان الجيش في هذه المرحلة، وشغل الفريق الخزرجيّ منصب معاون رئيس الأركان

للعمليات فيها، وسنرى بالضبط كيف تجاوزت هيئة الأركان العامة العراقية في ما بعد كل الإخفاقات التخطيطية والتحضيرية عند تخطيطها معارك التحرير التي وضعت حدًا للحرب العراقية - الإيرانية، والتي قادها الفريق الخزرجيّ في مرحلتي التخطيط والتنفيذ في ختام هذه الحرب.

كانت أهداف القيادة العراقية من شنّ الحرب تتلخص في التالي:

- إيقاف مد تصدير الثورة الذي مثّل عنفوان الثورة بعد نجاحها في إسقاط الشاه من دون أن تتدخل الولايات المتحدة الأميركية للدفاع عنه، مع ميوعة الولايات المتحدة وعدم حزمها في اتخاذ أي إجراء جدي عدا التحذير ومحاولة التفاوض لتحرير موظفي السفارة الأميركية المحتجزين في طهران، وفشل محاولتها تحريرهم بالقوة بعد اصطدام وسقوط الطائرات التي كانت تحمل قوة الاقتحام فوق الصحراء الإيرانية[34].

- إسقاط اتفاقية الجزائر التي ظلت شوكة في جنب الرئيس العراقي الذي وقّعها لأحوال مرحلية مع الشاه، وتنازل فيها عن جزء من الإقليم العراقي (نصف شطّ العرب) لإيران، وبشكل غير دستوري[35].

---

(34) Melani McAlister, «A Cultural History of the War without End,» *Journal of American History*, vol. 89, no. 2 (A Special Issue): *History and September 11* (September 2002), pp. 447-449.

(35) بعد أن استهدفت القوات الجوية الإيرانية الأراضي العراقي منتصف أيلول/ سبتمبر 1980، أسقط العراق طائرة فانتوم (F-4) داخل أراضيه وأعلن في 19 أيلول/ =

- شدّ الجبهة الداخلية أمام التحدي الخارجي المتمثل بتهديد الثورة الإيرانية. إذ كان الجانب الإيراني يسـعى بشكل محموم إلى تعبئة الرأي العـام من العرب العراقيين الشـيعة إلى جانبه، وهو ما فشل فيه فشلًا ذريعًا طوال فترة الحرب.

- فحص قدرات القوات المسلحة العراقية واستعدادها للقتال دفاعًا عن سيادة البلد وسلامته الإقليمية ووحدة ترابه. لم يكن هذا الهدف هدفًا رئيسًـا لدى القيـادة العراقية، لكن يقيـن هذه القيادة من مواجهة عربية إسـرائيلية مقبلة جعل من ضمان الأداء المتفوق للقوات هدفًا تسعى إليه، لضمان الانتصار على الجيش الصهيوني. ومن هنا رأت أن اندلاع الحرب سـيعطي بلا شـك مؤشرات إلى عوامل الإنجاز والإخفاق في أداء هذه القوات. فالإخفاق في تنفيذ المهمات الجوية كان واضحًا، على الرغم من نجاح عملية الضرب الأولـى، والإنجاز في معـارك الدرع كان واضحًـا كذلك كما في معارك الخفاجية والبسيتين في عام 1981.

- اسـتعادة أراضٍ عراقية اعترفت اتفاقية 1975 بعائديتها إلى العراق، وتلكؤ نظام الشّـاه في إعادتها نظرًا إلـى الظرف الداخلي الـذي كان يمر به النظام آنـذاك. وهنالك منطقتـان حيويتان حول مدينتي مهران وقصر شـيرين تؤمّن إعادتهما إلـى العراق دفاعات عراقية أفضل على الحدود بين البلدين. علمًا بأن إيران استخدمت

= سـبتمبر 1980 انسـحابه من هذه الاتفاقية وعدم التزامها، إلا أنه عاد وأعلن الأخذ بها بعد تطبيع العلاقات بين البلدين عشـية عملية إخراج العراق من الكويت. انظر الصحافة العراقية في 19 و20 أيلول/ سبتمبر 1980.

هذه المناطق بالذات لقصف مدينتــي خانقين ومندلي وحقول نفط «النفط خانــة» بالمدفعية، خلال فتــرة توتر العلاقــات العراقية - الإيرانية الذي أدّى في ما بعد إلى اندلاع الحرب.

- اغتنــام فرصة الفوضى التي كانت تعانيهــا إيران بعد الثورة وتوجيه ضربة قاصمة إلى القوات المســلحة الإيرانية بشــكل ينهي تهديدها العراق.

- تحرير إقليم عربستان (خوزستان) المأهول بالعرب والغني بالنفط، مع أن هذا لم يكن هدفًا معلنًا من أهداف الحرب، لكنه كان ينســجم مع النهج القومي العروبي الذي اتســم به نظام الحكم في العراق.

- إضعاف نظام حكم الملالي في إيران وتمهيد الأوضاع لنظام حكم ذي صفة علمانية يمكن العراق التفاهم معه، ويبعد التأثير السلبي لنظام الخميني عن شيعة العراق والخليج العربي. أذكر في هذا الصدد أن نظام حكم البعث احتضن قبــلًا الجنرال تيمور بختيار أول رئيس لجهاز الأمن والاستخبارات الإيرانية (الســافاك) الذي أقصاه الشاه عنه في عام 1961 والتجأ إلى العراق. وخطط العراق للاستفادة من وجوده بهدف التعجيل بتنفيذ انقلاب للسيطرة على السلطة في إيران. ومن المعلــوم أن الجنرال بختيار اغتيل على يد مرافقه الذي دسّــته أجهزة الاستخبارات الإيرانية (السافاك) في عام 1970.

- الظهور كقوة إقليمية متفوّقة تجبــر العالم على التعامل مع العراق على هذا الأساس.

ثالثًا: الأهداف الإيرانية من الحرب

إذا كان العراق قد استهدف إيران بضربة استباقية (لا تعني بالمقاييس العسكرية أنه هو الذي بدأها) فإن إيران على الرغم من الوضع السيئ الذي كانت تعيشه قواتها المسلحة النظامية بعد نحو سنتين على اندلاع الثورة (الإسلامية) ونجاحها، استهدفت العراق بالفعل كما هو مسجّل لدى الأمم المتحدة، وكما أشارت إليه البلاغات والبيانات التي أعلن عنها الطرفان منذ يوم 4 أيلول/ سبتمبر عندما قصف الإيرانيون أهدافًا عراقية في القاطع الأوسط (خانقين ومندلي)، وصعّدوا حتى استخدموا الطيران لقصف أهدافٍ داخل العراق في منتصف الشهر نفسه، حتى أتى الرد العراقي الواسع النطاق في الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر[36]. فهل كانت هنالك أهداف حقيقية تدفع إيران إلى غزو العراق واحتلاله، وتصدير ثورتها الإسلامية إليه عبر تثوير الرأي العام الشيعي في العراق ضد حكومته الوطنية، بغية إسقاطها وتولّي أنصار ولاية الفقيه السلطة في العراق تبعًا لذلك؟

واجهت إيران عند انتصار الثورة حالًا من الفوضى وانفلات النظام، مضافًا إليها التحريض الذي مارسه رجال الدين ضد مؤسسة القوات المسلحة النظامية، باعتبارها من المؤسسات التي كانت تدين بالولاء لنظام الشاه، لذلك تمت تصفية هذه المؤسسة، ودعوة أفرادها إلى الفرار منها حتى قبل انتصار الثورة. ولعل من أهم ما يُذكر هنا الفتوى التي أصدرها الخميني في السابع عشر

(36) كوردسمان وواجنر، ص 44.

من كانـــون الثاني/ يناير 1979 عشـــية انتصار الثـــورة، حين دعا الجنود وصغـــار الضباط إلى الفرار والانضمـــام إلى الثورة. وبعد انتصار الثورة بُدِئ بمطاردة الجنرالات وكبار الضباط وإعدامهم، وكانت جثـــث المعدومين تعـــرض على شاشـــات التلفاز، ويقال إن عدد الجنـــرالات وكبار الضباط الذين تـــم إعدامهم بلغ 550 ضابطًا، أُعدم أغلبهم فـــي نهاية آذار/ مـــارس 1979 بعد انتصار الثورة مباشرة[37].

واجهت الثورة منـــذ أوائل انطلاقهـــا مشـــكلتين مثّلتا تحديًا حقيقيًا لهـــا ولوعودها في تحســـينٍ طبيعـــة الحياة فـــي المجتمع الإيرانـــي المتنوع، إذ اندلعت في كلٍ من كردســـتان الإيرانية حركة ثورية مطالبة بالحكم الذاتي وداعيةً قادة الثورة إلى إنجاز وعودهم للشعب، قوبلت بالقمع الشـــديد على يد الحرس الثوري والقوات النظامية. وفي الوقت نفســـه تقريبًا شـــهد ربيع 1980 تصاعد ثورة إقليم (الأحواز) عربســـتان الداعية إلى تحقيق وعـــود الثورة بمنح الســـكان العرب حقوقهم القومية والثقافية، وقُمعت بشـــدة. وقام الأدميـــرال مدنـــي، محافظ الأحواز، باســـتخدام أقصـــى درجات العنف ضـــد المتظاهرين والمُضربين، حتى لجـــأ الألوف منهم إلى الحدود العراقية في المكان نفسه الذي ســـيصبح في ما بعد ساحة للحرب العراقية - الإيرانية. ومن المهم بيان أن حركة اللجوء هذه والاحتجاجات التي سبقتها أعطتا القيادة العراقية تصورًا بأن سكان الأحواز العرب ســـينضمون إلى القوات العراقيـــة باعتبارها قوات

(37) المصدر نفسه، ص 44.

تحرير، وهذا ما لم يحصل إلا في نطاق ضيق جدًا ولفترة محدودة، إذ لم يكن هذا التصور إلا تصورًا زائفًا.

شهدت هذه الفترة عمليات تطهير إضافية في القوات النظامية التي جرى تفكيكها تقريبًا بشكل عملي. وعلى الرغم من المسعى والرغبة والإرادة المتوافرة أساسًا بالتدخل عسكريًا في الشأن العراقي، كان لعملية الإضعاف المتعمد وتصفية القادة أثر في جعل القيادة الإيرانية الجديدة تدرك بالفعل الصعوبات التي ستواجهها لو شنّت حربًا واسعة النطاق على العراق، كما أن صعوبات جديدة نشأت بسبب احتلال الطلبة الثوريين السفارة الأميركية في طهران، وتفاقم الموقف حيال الولايات المتحدة، وموقف الأخيرة من النظام الجديد في طهران، مع أنها ساهمت في انتصاره، بتدخّلها لمنع القوات المسلحة من قمع الثورة. تشير الدراسات إلى أن التراجع في مستويات القوات المسلحة الإيرانية بسبب توقف التدريب والتمارين القتالية عطّل ما نسبته 3 في المئة من معدات القوات البرية، و50 - 60 في المئة من الطائرات، و60 في المئة من الطائرات السمتيّة (الهليكوبتر)، وأدى إلى تصفية وطرد 25 - 30 في المئة من الضباط متوسطي الرتب، وإلى ترك الآلاف من صغار الضباط الخدمة النظامية بحسب إحصاءات نهاية شباط/ فبراير 1980[38].

تمخض عن هذا الموقف بروز دعوة وجدت لها صدىً لدى القيادة الدينية، بأن تتولّى الجماهير المؤمنة حماية ثورتها. من هنا

(38) كوردسمان وواجنر، ص 45.

تم تشـــكيل الحرس الثوري، وشـــكّل هذا التطور انتقال الرأي إلى مجموعة من رجال الدين المعممين بدلًا مـــن هيئة الأركان العامة التي لم يعد لهـــا وجود عمليًا، على الرغم مـــن تعيين قائد للجيش عند تسنّم رئيس الجمهورية أبو الحسن بني صدر مهماته[39].

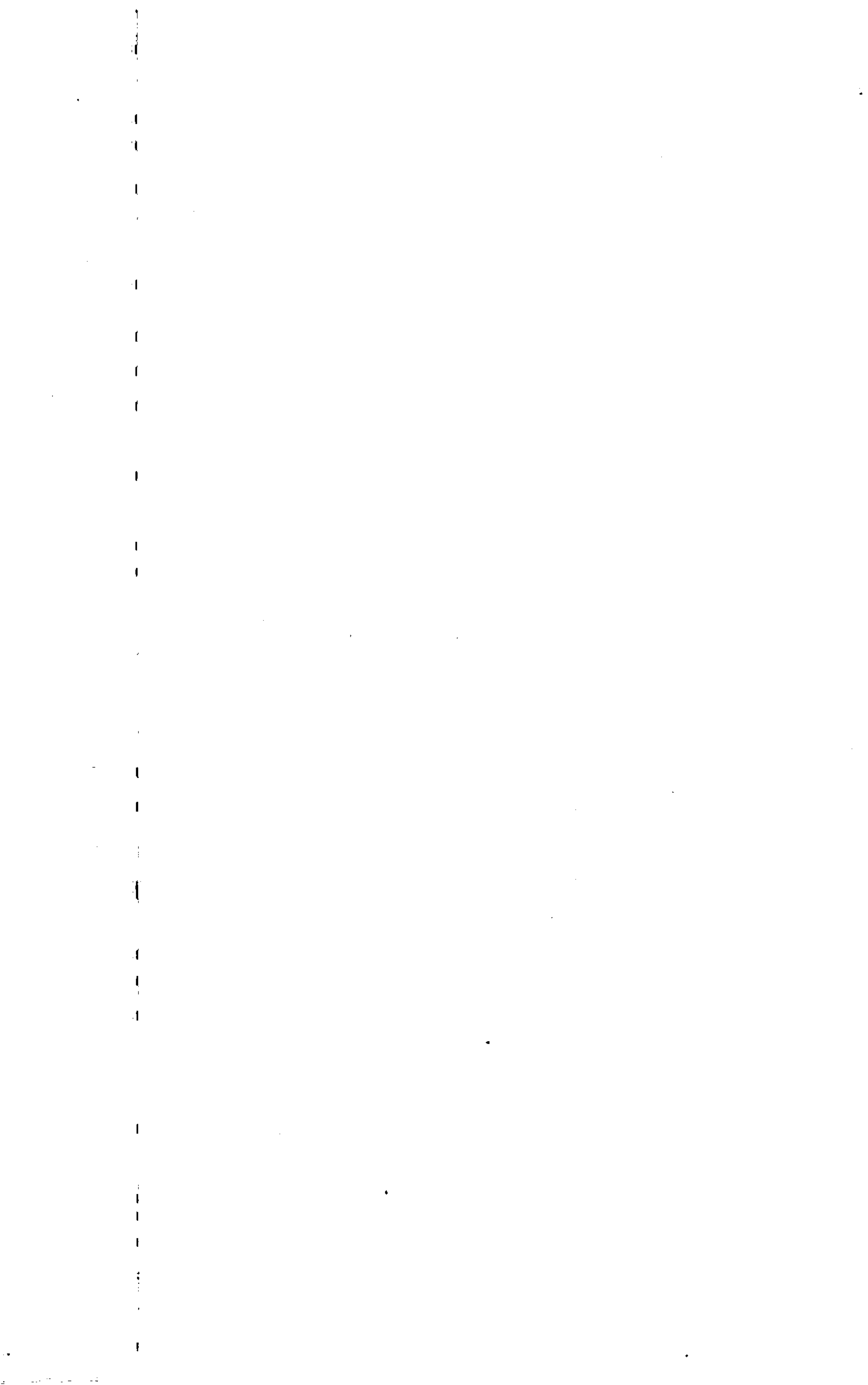
هكذا دخلت إيـــران الحرب، ولو بمناوشـــات حدودية، من دون أن تكون جاهزة مـــن الناحية القتاليـــة الفعلية لخوض حرب نظامية حديثة مع جارٍ يتوافر له تســـليح جيد بالمستويات الإقليمية وخبرة قتالية ليســـت قليلـــة. وإذا كانت لغة التحريـــض والتهديد الإيرانية قد تركت لدى القيادة العراقيـــة المقابلة إيحاءً وقناعة بأن غزوًا إيرانيًا لتصدير الثورة أضحى وشيكًا، فإن اللغة نفسها مضافًا إليها تحريضات المنشقين العراقيين الهاربين إلى إيران والمبعدين إليها أعطـــت القيادة الإيرانيـــة انطباعًا خاطئًا أيضًـــا، هو أن ثورة شعبية شيعية ســـتنطلق في العراق فور مناداة الخميني بذلك، وهو ما لم يحصل.

بهذا ســـاهمت رســـالتان خاطئتان وزائفتـــان التقطتهما قيادتا البلدين في نشوب وضع خطر ساقهما إلى الدخول في نزاع تحوّل صراعَ مصيـــرٍ لم تضع له حـــدًا إلا خمس منـــاورات قتالية نفّذتها القوات المســـلحة العراقية اعتبـــارًا من نيســـان/ أبريل حتى الثامن من آب/ أغســـطس 1988، بعد أن حصد طوال ثمانية أعوام آلاف الشبان من الجانبين.

(39) المصدر نفسه، ص 45.

الفصل الثاني

خلفيات النزاع



الصراع العراقي - الإيراني ليس جديدًا، بل هو صراع موروثٌ من حقب سـابقة، في أوجه متعـددة منه. وقد يكون من تبسـيط الأمور إسـناد هذا الصراع إلى عوامـل معيّنة بعينهـا، كأن نَصِف الصراع بأنه عربي - فارسـي، اسـتنادًا إلى صراع سابق في صدر الإسلام تسبب في انهيار الإمبراطورية الساسـانية التي كانت ثانية أعظـم إمبراطوريتين في العالـم القديم آنذاك، كما أن من تبسـيط الأمور إحالة الصراع على خلاف مذهبي سُـني - شيعي، لأن هذا الخلاف كان موجودًا طوال عمر التاريخ الإسـلامي، وفي العراق بالذات في وقت لم تكن فيه إيران شـيعية الهوية. لذلك لا بد عند البحث في أساسيات هذا الخلاف وأسـباب استمراره من استنباط مقاربات معرفية أكثر عمقًا وشمولًا. وفي هذا المجال فإن كثيرًا من البحوث والكتابات العلمية ضل سـبيله وافتقد العمق المعرفي لأنه ركن إلى الأسباب والظواهر الظاهرة فحسب، الطافية على السطح في معالجته المعضلات التي يدرسها وينقّب فيها. ويكتسب موقف كهذا أهمية عندما تكون الخلافات ضاربة في عمق التاريخ ومتعددة الطبقات، إذ سـيكون لكل المجـالات المعرفيـة دورٌ في إيضاح وإماطة اللثام عن الدواعي الحقيقية التـي جعلت من خلاف كهذا عميقًا ومؤثِّرًا بالشكل الذي رأيناه.

لا يصحُّ ما ورد آنفًا على الصراع العراقي - الإيراني في حقبته الحالية فحسب، بل إن هنالك مظاهر صراعية بين إثنيات وشعوب وأقـوام ودول في أماكـن أخرى مـن العالم، تشـترك من حيث مضمونها مع الصـراع العراقي - الإيراني الراهن بأبعادها التاريخية والمكانية والاجتماعية. خذ مثلًا على ذلك النزاع الألماني الفرنسي أو البريطانـي الفرنسـي في الغـرب، والصراع الصينـي الياباني، والكوري الياباني في الشـرق. وهي كلها صراعات لم تكن لمجرد خلافات حدودية معينة، أو انتهاكات سبّبها غزوٌ من هذا الطرف أو ذاك، بل إنها في واقع حالها خلافات صراعية سبّبتها عوامل متفاعلة من كل عناصر التفاعل الإنسـاني بين الشعوب. ومن هذا المنطلق نحاول في الصفحات التالية دراسـة وتلمّس الاعتبـارات المهمة التي تؤثّر في هذا النزاع وتجعله ممتد الأثر عبر الأزمان، يخبو تارةً ويلتهب أخرى.

أولًا: الاعتبارات الجيوبوليتيكية

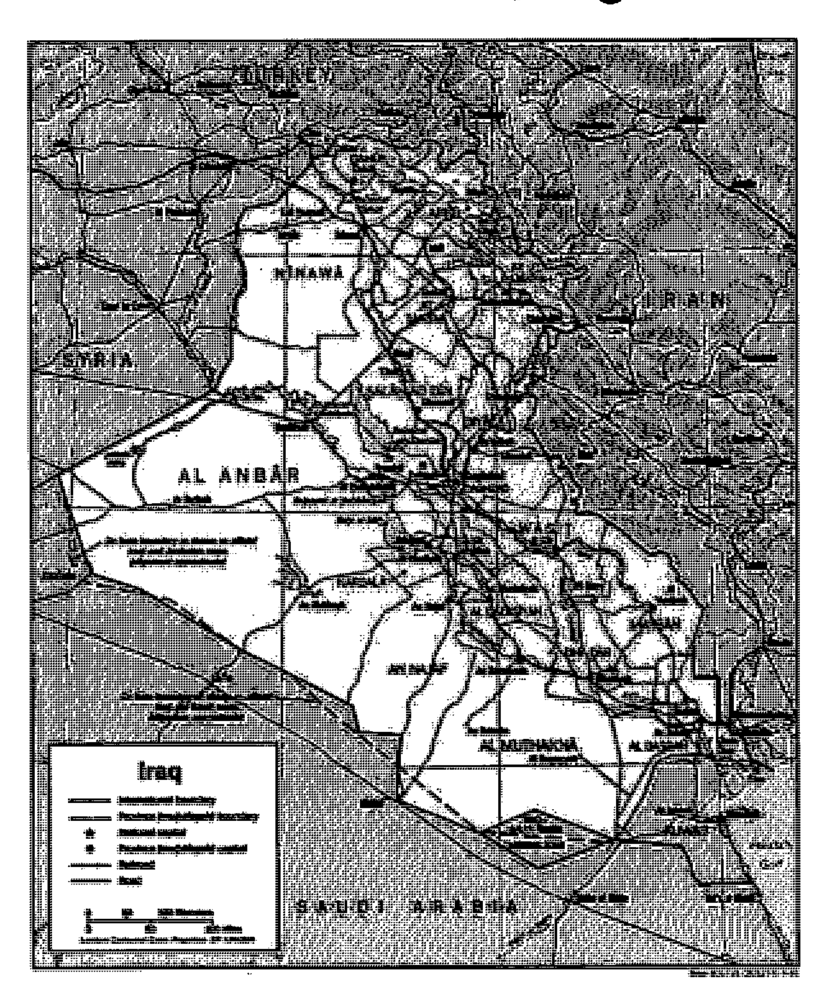
كانت الاعتبارات الجيوبوليتيكية على الدوام حاكمة في قضية الحدود العراقية - الإيرانية، ومن قبلها بين الدولة العثمانية وفارس. وورث العراق حقيقةً تداعيات هذه الحدود التي تمتد إلى ما يقرب من 1250 كلم، وتشـهد تداخلات إثنية وطوبوغرافية بين طرفيها، الأمر الذي يجعلها حدود احتكاك ونزاعات أكثر منها حدود حسن جوار وسلام.

تُقسـم الحدود العراقية - الإيرانية من هذه الناحية إلى ثلاثة قواطع يتميز كلٌّ منها بسـمات محددة؛ فالقاطع **الأول** هو القاطع

الجبلي، ويبدأ من المثلث الحـدودي العراقي الإيراني التركي في أقصى الشمال الشـرقي نزولًا إلى (سلسـلة جبال آق طاغ) قرب خانقيـن. يتميز هذا القاطع بكونـه جبليًا وعرًا تنعـدم فيه الطرق الصالحـة لحركة الآليـات الثقيلة، إلا في طريقين رئيسـتين، تقع إحداهما في أقصى الشمال الشرقي وهي طريق أربيل - راوندوز - حاج عمران - رايات وإلى أشـنوية في داخل إيران، وهي الطريق التي سلكتها الجيوش القيصرية الغازية في الحرب العالمية الأولى عند اسـتهدافها الموصل وتوقفت عند راونـدوز. والطريق الثانية هي طريق بغداد - بعقوبة - خانقين - قصر شـيرين - سـريّ بول زهاب - باي طاق - كرمنشـاه - همدان - كـرج - طهران. وهي الطريـق الدولية التي تربـط عاصمتي البلدين، وتتميـز بأنها تُفتح على سـهل وادي الرافديـن بعـد اجتيازها الحـدود، ولا حاجزَ طبيعيًا أمامها، إلا سلسـلة تلال حمرين التي تقطعها باتجاه جنوبي شرقي - شمالي شرقي عند السعدية وعلى بُعد نحو 120 كلم من بغداد، وهنالك طريق أخرى تتجاوز هذه الطريق وتطوّق بغداد من جناحها الجنوبي، وتخلو من الموانع الطبيعية بعد دخولها الأراضي العراقية، وهي طريق عيلام - مهران - بدرة - بسماية - بغداد. يُعد مرور خطّ الحدود من خط القمم على طول سلسلة جبال هورمان ذا تأثير اسـتراتيجي متسـاوٍ للبلدين. ومنطقة الحـدود هي منطقة كردية إثنيًا، وكانت تعاني طوال حقبة الحروب العثمانية الفارسـية تدخلات إيرانية وادعاءات بقاطع سوران (شهرزور) العراقي الذي مركزه مدينة السليمانية.

الخريطة (2 – 1)

خريطة العراق الطبيعية ويبدو فيها القاطع الشمالي الجبلي الذي يتساوى فيه تأثير الحدود في الجانبين والقاطع الأوسط الخطر على بغداد، والقاطع الجنوبي شديد الخطورة من الناحية الاستراتيجية



يبدأ القاطع الأوسط، الثاني، من خانقين ويسير بشكل مقعّر على العراق باتجاه الجنوب الغربي، ثم ينعطف باتجاه الجنوب الشرقي حتى الفكة شرق العمارة، فهو مقعّر لمصلحة إيران، ويقرِّب إيران من بغداد بشكل خطِر، بحيث تكون المسافة بين الحدود الدولية وبغداد على الطريق العام ليست أكثر من 150 كلم، تقطعها العجلات الحربية الحديثة في سويعات قليلة بحيث تصبح العاصمة العراقية مهددةً من هذا الاتجاه لوجود كثير من الطرق السالكة التي تقرِّب الحدود الإيرانية من بغداد، ومنها، فضلًا عن طريق بغداد – بعقوبة – المقدادية – السعدية – خانقين – المنذرية – خسروي (الحدود الإيرانية) – قصر شيرين – باي طاق – كرمنشاه الذي يُعد الطريق الدولية الرئيسة التي تربط العراق بإيران، وتُعتبر طريق الترانزيت التي كانت تسلكها التجارة الإيرانية العابرة التي كانت تسلك طريق موانئ البحر المتوسط إلى إيران عبر كلٍّ من سورية ولبنان والعراق. تساعد مجموعة المرتفعات وسلاسل التلال التي تحفل بها هذه الطريق في جانبها الشرقي في الدفاع حيال عدوٍ متقدم من الجانب الإيراني، وهي سلاسل آق طاغ التي تشكّل خطّ الحدود، ودراويشكة غرب خانقين، وحمرين التي تشكّل آخر مانع جدي لدحر القوات الغازية من الشرق.

لخطورة هذه الطريق، كان من أهم خيارات استراتيجيا العمليات عند وضعها خطط الهجوم الاستباقي الذي نفّذته القوات العراقية يوم الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1980 الاندفاعُ عبر قصر شيرين والوصول إلى سربيل زهاب/ باي طاق، وتم ذلك بنجاح. وبعد تنفيذها تعرّضها النهائي في عام 1988 قامت بالأمر

نفسه أي الاندفاع عبر حوض قصر شيرين والوصول إلى باي طاق لإجهاض أي تعرّض معادٍ من هذا الاتجاه.

شهد هذا القاطع الحدودي بامتداده المقعر الواقع بين حلبجة ومهران[1] كثيرًا من المعارك الحاسـمة فـي القاطع المحصور بين قصر شـيرين ومهران، وأودت هذه المعارك بأرواح كثيرين، لسبب رئيس هو إجهـاض أي إحاطة تسـتهدف الالتفاف علـى الطريق الرئيسة بغداد - خانقين - قصر شـيرين - باي طاق. لهذا السبب تم تنفيذ اندفاعات عملياتية اسـتهدفت مدن سـومار مقابل مندلي وكيلان غرب، في قاطع مندلي ومهران نفسه مقابل بدرة العراقية.

أما الطرق الأخرى التي يحويها هذا الاتجاه فهي:

- طريق بغداد - بعقوبة - بلدروز - مندلي - سومار.

- طريق بغداد - بسماية - بدرة - مهران عيلام.

وهما طريقان تتجاوزان العـوارض الدفاعية التي تقطع الطريق الدولية المشار إليها، وتُسهّلان الإحاطة المعادية للجانب المتقدم من الشرق، وتقرّبانه من بغداد لتُسهّلان له دخولها من الجنوب والشرق.

هنا أيضًا لاحظنـا أن مهران كانت هدفًـا للتعرضات العراقية كلها منذ بدء العمليات حتى ختامها، لأهمية وخطورة القاطع الذي تسـيطر عليه ووعورته من الجانب الإيراني، الأمر الذي يُعطيه مزية استراتيجية على الجانب العراقي الذي تنفتح الأراضي فيه، وتنساب

---

(1) انظر الخريطة (2 - 2)، ص 62 من هذا الكتاب.

باتجاه بغــداد عبر أراضٍ مفتوحةٍ يصعب الدفــاع عنها. والملاحظ أن المرتفعات المشــرفّة على مهران هي مرتفعات اعترفت اتفاقية 1975 بعائديتهــا إلى العراق وتلكأت إيران أيضًــا في إعادتها أيام الشاه، ورفض المعممون الحاكمون ذلك أيضًا حينما فاتحتهم فيها الخارجية العراقية بالطرق الدبلوماسية.

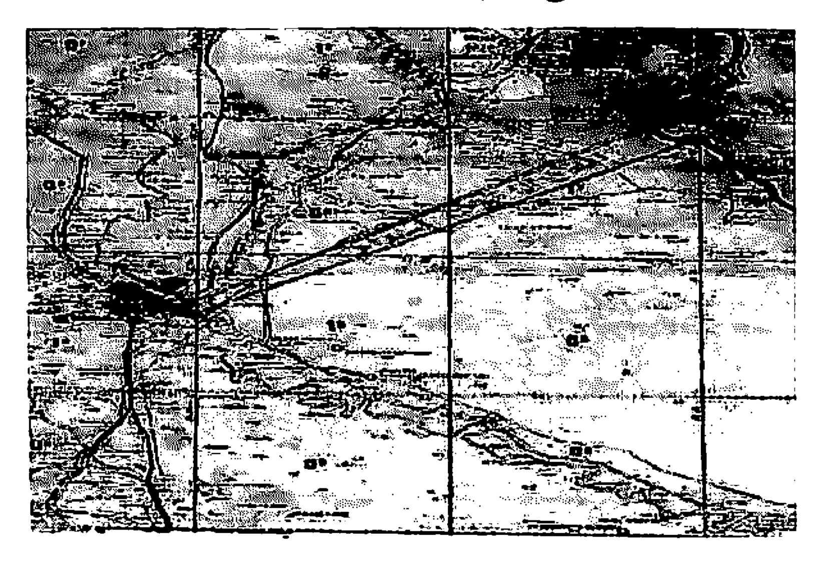
يشكّل قطاع الحدود من الجانب الإيراني مناطق جبلية وعرة مؤلفة من سلســلة جبال بشــتكوه، حيث تمر الحدود من سفوحها الغربية تاركة خطّ القمــم لإيران، الأمر الذي يشــكّل وهنًا بيّنًا في غير مصلحة العراق (انظر الخريطــة (2 – 2) التي تبيّن قُرب خطّ الحدود الدولي من بغداد).

كان خــط الحــدود المنطقي منــذ القدم هو مدخــل مضيق باي طاق في ســربيل زهاب الذي كان يتيح للعراق الســيطرة على مخرج المضيــق الذي يقود إلــى الداخل الإيراني؛ كرمنشــاه وما وراءها، هنالك دافع العباسيون في المرحلة الأخيرة من دولتهم أيام الناصر لدين الله، عندما أعاد ســطوة الخلافة على كامل الأراضي العراقية التي يحكمها حكمًا مباشــرًا[2]. وهنالك أنشــأ العثمانيون مواقعَ لحامياتهم أيام صراعهم مع الصفوييــن، لكنهم تنازلوا عنها للإيرانييــن باعتبــار أن الدولــة العثمانية اعترفــت بعائدية أردلان (وباي طاق منها) إلى إيران، مقابل تنازل إيران عن أي ادعاءات في

(2) للاطلاع على جهد الناصــر لدين الله العباســي (1190م-1237م). انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الســيوطي، تاريخ الخلفــاء (بيروت: دار الكتاب العربي، 2006)، ص 343-350.

شهرزور (السليمانية) وسوران. ومع ذلك احتلّت القوات العثمانية هذه المنطقة لتؤمّن جناح قواتها حيال تسلّل روسي محتمل عبر إيران، وهو ما تم بالفعل. وجرى قتال شرس بين الطرفين حتى اندلاع الثورة البلشفية التي ربما لولاها لتقاسم الروس والبريطانيون العراق.

الخريطة (2 - 2)
القطاع الحدودي الأقرب إلى بغداد:
قاطع مندلي - النفط خانة - بغداد



تمثل الخريطة (2 -2) القطاع الحدودي في القاطع الأوسط مقابل بغداد، حيث تكون أقرب مسافة شعاعية من بغداد نحو 80 كلم. والقاطع الجنوبي، هو الأخطر، إذ بعد أن يدخل هور الحويزة يتعامد على شط العرب في منطقة الشلامجة - قناة الخيين. وفي ما

عدا القاطــع بين الفكة شـــرق مدينة العمارة مـــرورًا بهور الحويزة كشك البصري شـــرق البصرة ونقطة الدخول في شط العرب الذي يكون أثيره متســـاويًا للطرفين، فإن الحدود في شـــط العرب كانت على الدوام مشكلة المشـــكلات بين البلدين، والاعتبارات الرئيسة لها هي اعتبارات جيوبوليتيكية.

كانـــت جزيرة الخضر (عبـــادان) كلها المحصورة بين شـــط العرب من الغرب وترعة بهمنشـــير من الشـــرق، والخليج العربي من الجنوب والكارون من الشـــمال، جزيرة عثمانية أكدتها اتفاقية الحدود الأولى التي تُعرف بمعاهدة زهاب المعقودة في 17 أيار/ مايو 1639 في زمن السلطان مراد الرابع[3]. ثم بدأ التراجع باتجاه شـــط العرب حتى أجبرت الأحوال العراق على التنازل عن نصف ملكيته المعترف بها من الشط في اتفاقية 1975. وكانت اتفاقيات عدة قـــد عُقدت بيـــن اتفاقيتـــي 1639 و1975، مثـــل اتفاقيات 1847 و1913 و1937، وشـــهدت كلهـــا تنـــازلات لمصلحـــة إيران. وتفاوتت آراء كثيرين من الباحثين الذين تناولوا هذا النزاع منذ اندلاعه عام 1980 حتى الآن، فـــي تحميل الإرث التاريخي والاحتكاك العربي الفارســـي مسؤولية اندلاع هذا النزاع[4]. وعلى

(3) Will D. Swearingen, «Geopolitical Origins of the Iran-Iraq War,» *Geographical Review*, vol. 78, no. 4 (October 1988), pp. 405-412.

(4) انظر على ســـبيل المثال في هـــذا المجال: بيانـــات القيـــادة العامة للقوات المسلحة العراقية وخطابات القيادة العراقية التي كانت تعطي البعد التاريخي الإثني دورًا مهمًّا في النزاع العراقي – الإيرانـــي؛ Phebe Marr, *The Modern History of Iraq* (Boulder, Colo.: Westview; London: Longman, 1985), and Jasim Mohammad Abdulghani, *Iraq and Iran: The Years of Crisis* (London: Croom Helm, 1984).

الرغم مما في هــذا الطرح من منطق، فإنه ليس الســبب الحقيقي للنزاع، بدليل أن البلدين تعايشــا فترات طويلة دونما مشــكلات بينهما، واستطاعا أن يجدا وسيلة للتعايش السلمي وحسن الجوار في كل مرة توصّلا إلى تفاهم على المطالب الســيادية والإقليمية والحدودية بينهمــا. الجيوبوليتيكا إذًا ســبب رئيس من أســباب النزاع الذي أضحى لا يقتصر على خــط الحدود بين البلدين، بل امتد ليشمل دور وموقع كلٍّ من البلدين جيوستراتيجيًا في الخليج العربي، بعد أن تحــوّل البلــدان قطبين من أقطــاب مثلث القوة الخليجي، أو مربع القوة إذا اعتبرنــا الوجود الأميركي فيه وجودًا مستمرًا في المستقبل المنظور.

عند مراجعة خطة التعرض الاستباقي العراقي في 22 أيلول/ ســبتمبر 1980 ســنجد أن محاور الطــرق هذه كانــت الأهداف الأساسية لخطة التعرض هذه، وكانت تهدف إلى منع الإيرانيين من اســتخدامها في هجوم توصلت قناعة القيادة العراقية إلى أن إيران ستسلكها عند تنفيذه.

يتوقــف بعــض الباحثيــن الغربيين فــي دراســته وتحليله الأســباب الداعية إلى الحــرب، أي التي قادت إليهــا عند حقيقة دأب العراقيون (ومعهم مناصروهم من العــرب) في تبيانها وهي أن إيــران كانت دائمًا ذات أهداف توســعية باتجاه العراق، وعلى مدى التاريخ، لكن الملاحــظ أن الغربيين لا يوردون هذه القناعة كما يعرضهــا العراقيون، بل من خلال دراســة التراتبيــة القيادية

والعقيدة العسكرية وراء بناء القوات المسلحة لكلٍّ من البلدين. ففيما يؤكد إفرايم كارش، المحاضر في الأمن الإقليمي في قسم دراسات الحرب في كنغز كوليدج - جامعة لندن، في دراسته: «القدرة العسكرية وأهداف السياسة الخارجية: الحرب العراقية - الإيرانية بنظرة جديدة» أن بناء القوات المسلحة العراقية كان بناء دفاعيًا تحسبيًا حيال تهديد محتمل مصدره إيران، وأن الوهن الجيوبوليتيكي الذي يعانيه العراق كان على الدوام مانعًا من توفيره بحرية قتالية قادرةً على الحسم في مسرح عمليات الخليج العربي البحري، يرى الكاتب نفسه أن بناء القدرة الإيرانية العسكرية في أيام الشاه جعل لها قدرات وإمكانات تعرضية في البر والبحر والجو[5]. وهذا يؤكد أن الخشية العراقية من هجوم إيراني وشيك، بناءً على القناعات المترسخة بأهداف إيرانية متجددة في العراق بعد التغيير الذي أتى بالإسلاميين إلى السلطة، كانت أحد أهم أهداف شنّ الحرب الاستباقية العراقية، ردًا على العدوان الإيراني الذي ابتدأ بقصف إيران المدن والبلدات والمنشآت الاستراتيجية في 4 أيلول/ سبتمبر 1980[6].

(5) انظر: طلال عتريسي، «العرب وإيران: مصالح مشتركة وعلاقات غير مستقرة،» في: محمد حامد الأحمري [وآخرون]، العرب وإيران: مراجعة في التاريخ والسياسة، تحرير عزمي بشارة ومحجوب الزويري (بيروت؛ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 103-104، و Efraim Karsh, «Military Power and Foreign Policy Goals: The Iran-Iraq War Revisited,» *International Affairs*, vol. 64, no. 1 (Winter 1987-1988).

(6) F. Gregory Gause, «Iraq's Decisions to Go to War, 1980 and 1990,» *Middle East Journal*, vol. 56, no. 1 (Winter 2002), p. 49.

يطرح إفرايــم كارش نظرية الحتــم الجيوبوليتيكي باعتبارها أســاس النزاع العراقي - الإيراني[7]. ويحمّل هذا الطرح في واقع الحال الكثير من الصدقية، فالذي يبحث عن الأســباب سيجد أن وضع العــراق الجيوبوليتيكي لا يتناســب مع اتســاعه الجغرافي والسكاني. لدينا بلد مساحته تقارب النصف مليون كلم²، وسكانه يناهــزون الثلاثين مليونًــا أو يزيد، وإمكاناته تجعلــه بلدًا واعدًا، إلا أنه بلد شــبه مغلق جغرافيًا، بلد يشــبه فيلًا يقــف مقلوبًا على خرطومه (شــط العرب) تشــاركه إيران في منفذ تنفســه الشرقي، والكويت في منفذ تنفســه الغربي. موقع جيوبوليتيكي يحمل كل أوزار الجغرافيا التي تفرض على بلد، كما هو ممر دانزيغ لألمانيا قبل أن تُسلب منها بروسيا الشرقية.

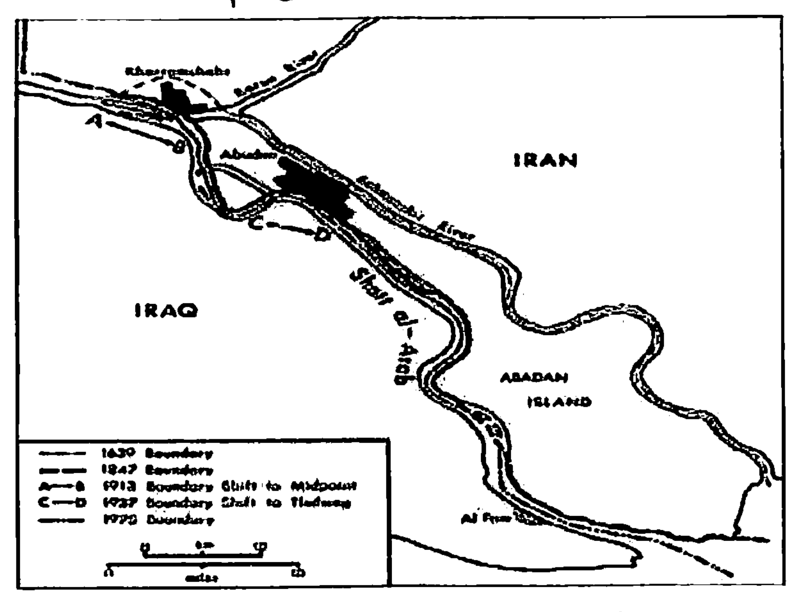
وجُرح العــراق في كرامته عندمــا انحنى للابتــزاز الإيراني ووافق على التنازل عن نصف شــطّ العرب وفــق اتفاقية 1975 المعقــودة بين البلدين، وعلــى الرغم من الفتــرة المحدودة التي شــهدت تحســنًا نوعيًا في العلاقات بعد عقد هذه الاتفاقية، أدّى إعلان النظــام الجديد في إيــران عدم اعترافه لفظيًــا بها، وتردّي العلاقات على نحو متســارع إلى أن يطلّ الحتــم الجيوبوليتيكي برأسه مرة أخرى.

---

(7) Efraim Karsh, «Geopolitical Determinism: The Origins of the Iran-Iraq War,» *Middle East Journal*, vol. 44, no. 2 (Spring 1990), pp. 256-268.

الخريطة (2 - 3)

انزياح خط الحدود في شط العرب لغير مصلحة العراق عبر الفترة التعاهدية منذ اتفاقية 1639 حتى عام 1975



المصدر: نقلًا عن: Will D. Swearingen, «Geopolitical Origins of the Iran-Iraq War,» *Geographical Review*, vol. 78, no. 4 (October 1988), p. 410.

ثانيًا: انعدام الثقة بين الطرفين

لم تُفاجأ القيادة السياسية ولا العسكرية بالنيات الإيرانية، إذ كانت قد اتخذت سلسلة من الإجراءات المتتالية على صعيد التخطيط وتفحص ساحة العمليات منذ اللحظة التي تولّت فيها القيادة الإيرانية الجديدة السلطة، ووضوح نياتها حيال العراق من البرقية المشهورة الموجّهة من الخميني إلى المرحوم محمد باقر الصدر التي يطلب إليه فيها التهيؤ لقيادة الثورة الإسلامية في

العــراق[8]. ومن الرد غير اللائق على رســالة التهنئة التي أرســلها الرئيس أحمد حسن البكر إلى القيادة الإيرانية للتهنئة بالثورة.

يرى بعض الكتــاب الغربيين الذين تناولوا الحــرب العراقية الإيرانية بالدراسة المعمقة، أن ما ترســب لدى القيادة العراقية من تحسُّــب من ســوء العلاقة في المســتقبل بحكام إيران الجدد، قد ســاهم في بناء أجواء انعدام الثقة بالنظام الجديــد في إيران، على الرغم مــن أن القيادة العراقية أبدت رغبتها فــي بناء علاقات جيدة بـ «الأشقاء الإيرانيين» بعد انسحاب إيران من معاهدة حلف السنتو (بغداد ســابقًا)، وعرضت مســاعيها الحميدة للمســاعدة في منح إيــران عضوية منظمة عدم الانحياز لو رغبــت في ذلك. وجاء هذا العرض برســالة دعوة إلى زيارة العراق موجّهة إلى رئيس الوزراء الإيراني الجديد بعد الثــورة مهدي بــازركان، وكذلك ما قيل عن إرســال الرئيس البكر رســالة إلى الخميني يقترح فيها زيارة إيران والرد الإيراني الجاف وغير الدبلوماســي عليها. وأشار ج. حسين

---

(8) أسهمت هذه البرقية في تسميم أجواء العلاقات بين البلدين، وكانت سببًا في محاكمة الراحل الصدر وتنفيذ حكم الإعدام به لتهديده سلامة نظام الحكم وللتآمر. وقد اتُّخذت البرقية المذكورة مستمسكًا جرميًا في الدعوى. في الواقع كان يدور في الكواليس وسماعًا من مسؤولين أمنيين كثيرين أن السلطة حاولت كثيرًا مع الراحل الصدر لثنيه عن الاصطفاف إلى جانب الخميني، خصوصًا أنه الأعلم، فضلًا عن كونه عراقيًا عربيًا وليس ذا أصول إيرانية وهو ما كانت تفضله الحكومة العراقية من تشــجيع للمرجعيات العربية. قد لا يقبل البعض هذه الحقيقة نتيجة التشــويش الذي «شيطن» الحكومات العراقية التي ســبقت الاحتلال في موقفها من الشيعة العراقيين، لكن هذه هي الحقيقة وليس أدل على ذلك من تشــجيع الحكومة العراقية مرجعية الصدر الثاني المرحوم محمد محمد صادق الصدر (شقيق محمد باقر الصدر الراحل) الذي اغتيل في ما بعد، وحققت الحكومة في الموضوع وأعلنت الجهة المسؤولة عن اغتياله.

راضي في دراسته: «نموذج بديل لعقلانية الدولة في السياسة الخارجية: الحرب العراقية - الإيرانية» إلى دورٍ قام به مع آخرين للرد بالإيجاب على عرض الرئيس أحمد حسن البكر زيارة إيران، وكيف نجحوا في إقناع الخميني الموجود في حينه في قم بكتابة ردّ إيجابي إلا أنه فوجئ بعد عودته إلى طهران بأن ردًا جافًا وخشنًا وغير دبلوماسي أُرسل ردًا على برقية البكر[9]. كذلك في أثناء لقاء جرى بين النائب صدام حسين ووزير الخارجية الإيراني إبراهيم يزدي[10] على هامش اجتماعات قمة عدم الانحياز، إلا أن النيات السيئة لدى بعض الدوائر المهيمنة على القرار الإيراني، وهواجس عدم الثقة من الجانب العراقي أحبطت هذا المسعى[11].

---

(9) للتفاصيل، انظر: G. Hossein Razi, «An Alternative Paradigm to State Rationality in Foreign Policy: The Iran-Iraq War,» *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 4 (December 1988), p. 706.

(10) الدكتور إبراهيم يزدي (ولد عام 1931) وزير الخارجية الإيراني الأسبق في الحكومة الإيرانية الموقتة التي تشكلت بعد سيطرة تحالف رجال الدين والحركة الليبرالية اليسارية الإيرانية على السلطة بعد سقوط الشاه. استقال من منصبه احتجاجًا على اقتحام السفارة الأميركية في طهران. التقى الرئيس العراقي الراحل صدام حسين على هامش مؤتمر قمة عدم الانحياز الذي عُقد في هافانا في أيلول/ سبتمبر 1979 في محاولة لوضع أسس لعلاقة حسن الجوار بين البلدين. اعتُقل يزدي الذي يشغل منصب أمين عام حركة تحرير إيران المعارضة لنظام حكم ولاية الفقيه بعد احتجاجات 2009 على انتخابات الرئاسة التي جاءت بأحمدي نجاد رئيسًا لدورة رئاسية ثانية، وأعيد اعتقاله بعد إطلاق سراحه أكثر من مرة وحكم عليه آخر مرة بالسجن ثماني سنوات.

(11) بيّن كل من المقدمين كارلا توريز وفنسنت زيلينسكي في دراسة مُقدّمة إلى كلية الدفاع الوطني الأميركية، أن القيادة السياسية العراقية بذلت جهدًا مضنيًا في نزع فتيل المشكلات والتهديد مع إيران باتخاذ خطوات تصالحية منذ عام 1979 حيال الثورة الإيرانية والإسلام الشيعي على حد سواء، لكنهما يبيّنان أن كل تلك الخطوات التي عدّداها بالتفصيل لم تلقَ آذانًا صاغية من القيادة الإيرانية الدينية الجديدة التي ظلت =

في هذه الأثناء اســتمرت التحضيرات التحســبية من الجانب العراقي بإيلاء شــأن الحدود العراقية - الإيرانيــة أهمية أكبر، فرفع مستوى القسم الذي كان يتولّى شأن إيران في مديرية الاستخبارات العسكرية العامة إلى مستوى شــعبة، وبدأت حركة دؤوبة في جمع وتمحيــص المعلومات عــن إيــران وتحليل اتجاهاتهــا، وكذلك نفِّذت سلسلة متوالية من الاســتطلاعات التفصيلية لمنطقة الحدود العراقية - الإيرانية، قامت بها مديرية التخطيط المتشكلة حديثًا وفق النتائج التي توصلت إليها اللجنة الدارسة المشكَّلة لدراسة الحدود العراقية الإيرانية[12].

أشــار المؤلف في هــذا الصدد، إلــى مؤتمرٍ لقــادة الفيالق والفرق عُقد برئاســة نائب القائد العام عدنان خيــر الله وبحضور رئيس أركان الجيش وهيئة ركن العمليات والاستخبارات والإدارة لتفحُّص اســتعداد التشــكيلات لعمل محتمل مُقبِل ضد إيران، لو تطور الموقف على الحدود إلى مواجهة. هنا كان الفريق الخزرجيّ

= تنظر إلى صدام كونه علمانيًا. انظــر: Karla Torrez and Vincent Difronzo, «The Iran-Iraq War: Exceeding Means,» (National Defense University, National War College, October 2000), pp. 4-5, Quoted in: Efraim Karsh and Inari Rautsi, *Saddam Hussein: A Political Biography* (London: Brassey's, 1991).

(12) تشكلت في دائرة العمليات في وزارة الدفاع لجنة سميت «اللجنة الدارسة» عملت بإشــراف نائب القائد العام وزير الدفاع ورئسها الراحل اللواء الركن عدنان أحمد الجبوري، أنيطت باللجنة دراسة الحدود العراقية - الإيرانية البرية والبحرية وإعداد تقدير موقف مفصــل عنها. وكان كاتب هذه الســطور أحد ثلاثة ضباط ألّفوا الزمرة الدارســة البحرية ضمن اللجنة. تحولت اللجنة الدارســة إلى مديريــة التخطيط بعد إنجاز واجبها وعيِّن أحد أعضــاء الزمرة البرية مديرًا للتخطيط وهو المرحوم اللواء الركن شــاكر وجر الإمارة.

كمـــا هو معهـــود عنه صريحًا ومباشـــرًا فـــي بيان درجة اســـتعداد التشكيلات التي ستُزج في المعركة، والمدة المطلوبة لإعادة تأهيلها وتحويلها من تشـــكيلات منهمكة في عمليات الأمن الداخلي، إلى تشـــكيلات قتالية تتقن المهـــارات التعبوية والعملياتية وأســـاليب المناورة المطلوبة لأحوال حرب حقيقيـــة عصرية. صحيح أنه كان يتحدث عن أحـــوال القطعات المنفتحة لأغـــراض الأمن الداخلي شمال الوطن، وفرقته الســـابعة التي كان يقودها واحدة منها، إلا أن ذلك كان ينطبق بشـــكل أو بآخر على بقية التشكيلات، لأن أغلبية التشـــكيلات القتالية العراقية أُقحمـــت دوريًا فـــي قضايا مكافحة العصيان في الشمال وعمليات الأمن الداخلي.

ثالثًا: الاعتبار المذهبي/ الطائفي

ظل هذا الاعتبار يطل برأســـه مؤثرًا في مجمل العلاقات بين العراق وإيران، منذ كان العراق جـــزءًا من الدولة الصفوية (1508 - 1534) والفتـــرة الثانية بين عامي 1623 و1638، إذ شـــهدت هذه الفترة اســـتقطابًا مذهبيًا حادًا رعته الدولة الصفوية ودفعت إليه باعتبارها دولة مذهبية طائفية تعتمد التشـــيّع الإثني عشـــري مذهبًا رســـميًا للدولة، الأمر الذي أثّر في الشرائح المجتمعية غير الشيعية في العراق ودفعها إلى الاستعانة بالقوة السُـــنيّة العظمى الموجودة آنذاك، وهي الدولة العثمانيـــة التي دخلت مرتين لتحرير العراق من الاحتلال الصفوي في غضون قرن من الزمان، كما هو مُبيَّن أعلاه. من هنا نشأ النزاع الحدودي الإيراني - العراقي بين الدولة العثمانية وإيران متلفعًا برداء طائفي مذهبي يدفع كلًا من الطرفين إلى تلبُّس

حالة مذهبية للدفاع عن حيازاته، وهو ما أورث البلدين نزاعًا عنيفًا ما زالت آثـــاره ماثلة أمام أعيننا بما نراه يجـــري في عراق اليوم من صراعات مؤطّرة بالإطار الطائفي، وهي ليســـت أكثر من صراعات سياســـية مصلحية في حقيقتها يدفع البلدان ثمنها من دماء أبنائهما، كما حدث في هذه الحرب التي نناقشها في هذا الكتاب[13].

إذا حلّلنا سلوك القيادة العراقية في تراتبياتها القيادية المتوالية نرى أن الحماســـة التي كانت تلف ســـلوك بعض القيادات الشابة من العسكريين الحزبيين على وجه الخصوص، مصدرها التحسب والتخوف من القيـــادة الدينيـــة الإيرانية التي هيمنـــت على إيران، وحوّلتها بإدراك العراقيين من دولـــة جارة يُختلف ويُتفق معها على قضايـــا كثيرة، كما كان الحال زمن دولة الشـــاه، إلـــى دولة مذهبية وضعت العراق (وشـــيعته) نصب عينها في ســـعي إلى تحقيق حلم إســـماعيل الصفوي بالســـيطرة على البلد الذي يضمّ رفات ســـتة

(13) انظر: علي حســـين الوردي: دراســـة في طبيعة المجتمـــع العراقي: محاولة تمهيدية لدراســـة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث (بغداد: مطبعة العاني، 1965)، ولمحات اجتماعية من تاريخ العـــراق الحديث، 6 ج في 8 مج (لندن؛ بيروت: دار الوراق، 2007)، ج 1: من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاســـع عشر، وج 2: من سنة 1831 إلى سنة 1872، و Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*, chap. 2: The Conditions that Shaped the Iran-Iraq War.

وانظر كذلك: وجيه كوثراني، الفقيه والســـلطان: جدلية الدين والسياسة في إيران الصفوية، القارســـية والدولة العثمانية، ط 2 منقحة ومزيدة (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشـــر، 2001)، ص 43-62، وهـــي تُمثل وجهـــة نظر أخرى في الصـــراع الصفوي العثماني تقرب من اعتبار العامل الجيوبوليتيكي دافعًـــا إليها، وإن تدثر بالإطار المذهبي للطرفين.

من اثني عشـــر من أئمة المذهــب الإمامي، وموقــع غيبة آخرهم المهدي[14]. هنا ترسَّـــخ في الأذهان أن الصـــراع مع هذا النظام هو صراع مبدئي تتقرر ســـيادة العراق وبقاؤه بنتيجتـــه. وهنا بان أيضًا للقيادة العراقية أن الضعف البيِّن في قوام وهيكلية القوات المسلحة الإيرانية ســـيعود بالنفع على أي تعرّض عراقي يســـتهدف إجهاض النيات الإيرانية ضد العراق في المستقبل[15].

يندر أن تجد بلدين متجاورين من دون مطالبات من هذا البلد أو ذاك على قطاعات حدودية، أو على مـــوارد اقتصادية أو مصادر ميـــاه، أو عائدية فئات إثنية لهذا الطـــرف أو ذاك. لكن هذا لا يعني دائمًـــا أن تحل هذه المشـــكلات بالقتال، بل إن القتـــال هو الخيار الثامن الذي يأتي بعد سبعة خيارات متسلسلة لحلّ المنازعات بين الأمم، وهي خيارات أصبح معترفًا بهـــا في علم العلاقات الدولية. يمكننـــا بعد إدراج هذه الوســـائل التعرف: هل بذل هـــذان البلدان الجاران جهدًا أم لا للجوء إلى أيٍّ من هذه الأســـاليب، على الرغم من أنها كانت متاحة لهما، بل تبرعت أكثر من جهة ببذل وســـاطتها ومساعيها الحميدة للوصول إلى حل يرضي الطرفين.

كان بإمكان العـــراق وإيران اللجوء إلـــى المفاوضات الثنائية أولًا، فإن تعذّرت فإلى الوســـاطة ثم التحقيق والتوفيق والتحكيم،

---

(14) هم كل من الإمام علي بن أبي طالب والحســـين وموســـى الكاظم ومحمد الجواد وعلي الهادي والحســـن العســـكري. ويثوي في المدينة المنـــورة كل من الإمام الحســـن بن علي وعلي بن الحســـين ومحمد بن علـــي وجعفر بن محمـــد. ويثوي في خراسان بإيران علي بن موسى.

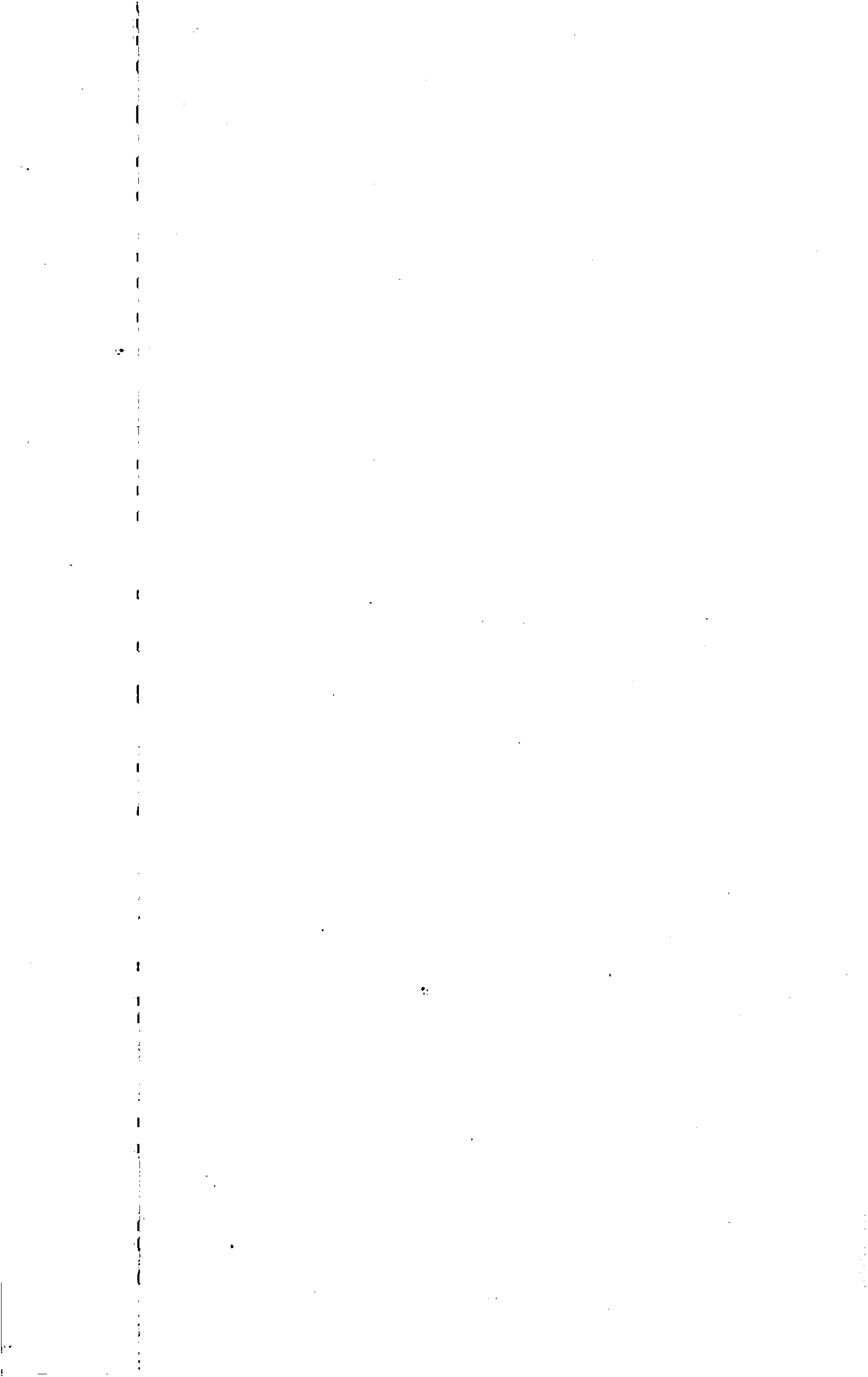
(15) Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War*, pp. 7-8.

وعرض مشكلتهما على محكمة العدل الدولية للحصول على حكم يتعهّدان بالتزامه.

كان هنالك جانب رافض دائمًا لأيٍّ من هذه الوسائل. وكي لا نُتهم بأننا نحمّل إيران دائمًا المسؤولية، ننصح المتتبع بالعودة إلى جهد بذلته الجزائر وتوقف عند إسقاط طائرة وزير الخارجية الجزائري الراحل محمد الصديق بن يحيى في 3 حزيران/ يونيو 1982 على الحدود الإيرانية - التركية وهو في طريقه إلى طهران، بعد أن زار بغداد بهدف الوساطة بين البلدين المتحاربين. والمراقب لسجل الوساطات ومحاولات التسوية بين البلدين يجد أنها توقفت تقريبًا في غضون السنوات الأولى من الصراع، بعد أن تأكد للجهات القائمة بها عدم توافر الإرادة السياسية لدى الطرفين لإنهائه. يمكن أن يستنتج المتابع المحايد بسهولة أن الطرف الذي كان يصر على عدم إنهاء الحرب هو إيران ممثَّلة بشخص الإمام الخميني.

الفصل الثالث

الحرب العراقية - الإيرانية
المقدمات والنتائج



اندلعت الحرب في فترة يحســبها العراق من 4 أيلول/ سبتمبر 1980، باعتبار هذا التاريخ هو الموعد المثبت لبدء إيران التعرض للأرض العراقية مدنًا وبلدات ومشــاريع، وهو موعــد ثبته العراق بمذكرات رســمية أودعتها الخارجيــة العراقية الجانــب الإيراني دبلوماسيًا وأُشــعرت بها الأمم المتحدة. أما إيران فلا تعدُّ فاعلياتها في هذه الفترة عدوانًا على العراق، علــى الرغم من أنها تقع تحت التعريف الدولــي المتفق عليه للعــدوان في قــرار الجمعية العامة للأمم المتحدة (3314XXIX) المتخَذ في جلستها المرقمة 2319 في 14 كانون الأول/ ديســمبر 1974. يقول منطوق القرار في تعريف العدوان الوارد في المادة (1): «العدوان هو استعمال القوة المسلحة من جانب دولة ما ضد ســيادة دولة أخرى أو سلامتها الإقليمية أو اســتقلالها السياســي، أو بأي صورة أخرى تتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة، وفقًا لنص هذا التعريف».

وفي تصنيف الأفعال التي تُعــد عدوانًا أوضحت الفقرة (ب) من القرار أن القصف المدفعي يُعد أحد أشكال العدوان[1].

شــن العراق تعرّضه الاســتباقي في 22 أيلول/ ســبتمبر في

---

(1) انظر الموقع الإلكتروني للجمعية العامة للأمم المتحدة: <www.un.org>.

توقيت اختير لتحقيق المباغتة، إذ انطلقـــت طائرات القوة الجوية العراقية لتُحقق ضربة مفاجئة للقواعـــد الجوية الإيرانية الموجودة في المديين القريب والمتوســـط من جبهة العمليات التي ستنشـــأ اعتبـــارًا من اليوم المذكـــور[2]. نجد هنا مماهاة بـــكلٍّ من الضربة الأولـــى التي تحققت علـــى الجهد الجوي الإســـرائيلي في جبهة القناة، والتي نفّذها ســـربا هوكـــر هنتر عراقيـــان موضوعان بإمرة القوات المســـلحة المصرية يوم 6 تشـــرين الأول/ أكتوبر 1973 (العاشـــر من رمضان)، والضربة الجوية الإســـرائيلية الاســـتباقية يـــوم 6 حزيران/ يونيو 1967. ثم ابتدأ الاختـــراق العراقي لإيران من ثلاثة قواطـــع عمليات أهمها القاطع الجنوبي الذي اســـتهدف عربســـتان بعملية خرق عميـــق نفّذتها خمس فرق مدرعة ومشـــاة آلية من ثلاثة محاور مســـتهدفة مدنها الكبـــرى: المحمرة وعبادان والأحواز والفلاحية. ونفِّذ خرق مـــوازٍ للجبهة في القاطع المقابل لمحافظة ميســـان (العمـــارة)، مســـتهدفًا مدينة ديزفـــول القاعدة العســـكرية والصناعية المهمة، والشـــوش، فضلًا عن اختراق آخر نفِّذ في القاطع الأوســـط من ســـاحة العمليات مقابل بغداد، وهو القاطع الذي بـــدأ العـــدوان الإيراني منه، لذلك وجـــدت القيادة العراقية أهمية لإبعاد الأذى الإيراني، فاستهدفت مدن قصر شيرين

---

(2) يبيِّن ج. حســـين راضي أن الخميني نفســـه فوجئ بالاجتياح العراقي، لذلك اضطر إلى تعديل خطابه وبدأ بالإشـــادة بالجيش وأطلق ســـراح الضبـــاط المعتقلين من جيش الشـــاه، بعد أن كانت العمليات جارية بتصفية الكادر الضباطي بالإعدام والسجن من جهة، وتدمير التقانة العســـكرية الأميركية من جهة أخرى. انظـــر: G. Hossein Razi, «An Alternative Paradigm to State Rationality in Foreign Policy: The Iran-Iraq War,» *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 4 (December 1988), p. 711.

وكيلان غرب وسـربيل زهـاب[3]. وحققت القطعـات الخارقة أهدافها تقريبًا في كل القواطع، وفرضت سـيطرتها على قطاعات مهمة من الأرض الإيرانية المقابلة للعراق التي يخشـى أن تنطلق منها عمليات تعرضية إيرانية ضد العراق[4].

هل كان ما قام به العراق في 22 أيلول/ سبتمبر 1980 استباقًا أم حربًا وقائية أم حربًا إجهاضية أم حربًا دفاعية؟

للإجابة عن هذا التسـاؤل لا بدّ من ضبط التعابير والمفاهيم الاصطلاحية الواردة أعلاه. لنبدأ بالاسـتباق (Preemption). يُعرّف قاموس المصطلحـات العسـكرية الأميركي الصـادر عن وزارة الدفاع الأميركية الهجوم الاسـتباقي بأنه: الهجوم الذي يُشنّ على أساس دليل لا شكّ فيه بأن هجوم العدو أصبح أكيدًا ووشيكًا[5].

مـرّت الحرب العراقيـة – الإيرانيـة (1980 – 1988) بأربع مراحل متميّزة لكل منها سماتها، يمكننا إجمالها بما يلي:

---

(3) يُعد مضيق بايطاق بوابة العراق الشرقية، ومنذ شهد العراق غزوات الأغراب، كان هذا هو الممر الذي يسلكه الغزاة للقدوم والدخول إلى سهل وادي الرافدين. لذلك نجد أن مسـك هذا المضيق كان أحد أهداف الخلفاء العباسيين المتأخّرين عندما طردوا المتسلطين على بغداد، وأعادوا إحكام سيطرتهم على العراق.

(4) Stephen C. Pelletiere and Douglas V. Johnson, *Lessons Learned: The Iran-Iraq War* (Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 1991), pp. 7-11.

(5) Preemptive Attack Is: An Attack Initiated on the Basis of Incontrovertible Evidence that an Enemy Attack Is Imminent, see: *Department of Defense Dictionary of Military and Associated Terms*, Joint Publication; 1-02 ([Washington, DC: Government Reprints Press], 1911), p. 288.

- المرحلة الأولى: مرحلة الرد على العدوان وأخذ زمام المبادأة

بدأت هذه المرحلة اعتبارًا من 22 أيلول/ سبتمبر 1980 بالتعرض العراقي الذي استهدف الوصول إلى مناطق في العمق الإيراني تكون مؤثرة استراتيجيًا كي تُجبَر إيران على الجلوس للتفاوض وحل المشكلات سلميًا. وحقق العراق خرقًا ذا مغزى في القواطع الثلاث للعمليات: القاطع الجنوبي حيث كانت قوة الخرق الرئيسة التي استهدفت القاطع البري المقابل للبصرة، ووصلت طلائع القوات العراقية، حين دخلت الفرقة الآلية الخامسة إلى مشارف الأحواز، واجتازت الفرقة المدرعة الثالثة الطاهري على نهر الكارون، وأحكمت الحصار على عبادان من الجنوب الشرقي وقطعت طرق مواصلاتها مع المحمرة (خرم شهر) - عبادان على شط العرب. وكان اندفاع مدرّع من منطقة الفكة قد نجح في اجتياز المانع الرملي في منطقة تلال الله أكبر فواصل طريقة باتجاه الأحواز عن طريق البسيتين - الفلاحية (سوسنكرد) - كوت الهواشم التي وصلت الفرقة التاسعة المدرعة إلى مشارفها.

في قاطع الفيلق الرابع نجحت الفرقة العاشرة في عبور نهر الطيب والدراجي على الحدود واندفعت باتجاه ديزفول المدينة المهمة على نهر الكرخة، ووصلت إلى الضفة القريبة من النهر بعد أن احتلّت إمام زادة عباس في طريقها، ووصلت الفرقة الآلية الأولى إلى الشوش على نهر الكرخة العمية، وبهذا تكون القوات العراقية قد استوعبت الفضاء الذي يفصل الحدود

العراقية - الإيرانية عـن نهري الكرخة والكرخـة العمية. أما في القاطع الأوسـط الذي كان هدف العدوان الإيراني في 4 أيلول/ سـبتمبر 1980 فاندفعت الفرقة المدرعة السادسـة واحتلّت قصر شـيرين، ثم اندفعت إلى سـري بول زهاب علـى مدخل مضيق باي طاق الاستراتيجي في سلسـلة كرند التي شكلت على الدوام المدخـل إلى العـراق. واندفعت مـن مندلي تشـكيلات أخرى احتلّت سومار وكيلان غرب.

بعد إنجاز القوات المسلحة العراقية هذه الصفحة من الحرب بادر العراق إلى بيان عدم وجود أطماع لديه في الأراضي الإيرانية، وأن كل ما يطمح فيه هو الجلوس والتفاوض مع إيران لوضع أسس لعلاقة تفاهم وحسـن جوار بين الطرفين[6]، فأعلن قبول قرار وقف إطلاق النار الصادر عن مجلس الأمن في جلسـته 224 تحت رقم 479 في 28 أيلول/ سبتمبر 1980[7].

(6) بادر العراق فضلًا عن قبوله قرار وقف إطلاق النار الذي يدعو إلى انسحاب قوات البلدين إلى حدودهما الدولية، إلى قبول الوساطات كافة كلجنة المساعي الحميدة التي شكلتها الأمم المتحدة برئاسة السـفير الكوبي ومبادرة الأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم ومبادرة مؤتمر القمة الإسلامية والوساطة التي رئسها الرئيس الباكستاني ضياء الحق، ووسـاطة الرئيس الراحل عرفات وغير ذلك كثير. للتفاصيل انظر: العراق، وزارة الخارجية، اللجنة الاستشارية، النزاع العراقي الإيراني: ملف وثائقي (بغداد: اللجنة الاستشارية، 1981).

(7) <http//:www.UNSCLresolutionsL479/1980>.

كما أصـدرت الأمم المتحدة كتابًا تحت عنوان الحالة بيـن العراق وإيران يمكن الاطلاع فيه على سلسـلة القرارات الدوليـة التي رفضتها إيران حتـى القرار 578 لعام 1987 الذي اضطرت إلى قبوله بعد تحطيم آلتها العسـكرية في معارك التحرير الكبرى التي نتناولها في هذا الكتاب.

- المرحلة الثانية: الهجوم الإيراني المقابل وتحوّل العراق إلى الدفاع

كانت معركتا الخفاجية (سوسنكرد) والبسيتين في مفتتح عام 1981 علامة تحوّل إيران إلى الهجوم بتنفيذ قواتها عملية هجوم مقابل بالدروع؛ حيث اشتركت نحو 300 دبابة، أي ما يعادل لواءين مدرعين في عملية هجوم مقابل عنيف استبسلت القوات العراقية في صده واستماتت، حتى تحملت الفرقة المدرعة التاسعة خسائر جسيمة وكادت أن تشطب من القوة القتالية، إلا أن نتيجة هذه المعركة حسمها العراقيون بهجوم مقابل وبمعركة مهارشة بالدبابات نفّذها اللواء المدرع العاشر بقيادة العميد الركن (آنذاك) محمود شكر شاهين وتم تدمير التعرض الإيراني. تحوّلت القوات العراقية منذئذٍ إلى الدفاع وفقدت المبادأة. ومن الملاحظ أن العراقيين حققوا هنا خطة مخادعة ممتازة نفّذها القائد العراقي بالتظاهر بالانسحاب أمام رتل الدبابات الإيراني المتقدّم، وفجأة وبمناورة ذكية أطبق اللواء المدرع العاشر المجهز بدبابات (T-72) السوفياتية الحديثة، بحركة مناورة ضرب الجناحين، على الفرقة المدرعة الإيرانية وأوقعها في كمين، فتم تدمير زهرة القوات الإيرانية فيه ولم ينجُ إلا من اختار الفرار[8]. تصلح هذه المعركة لتكون قتالًا مثاليًا لمعارك الدروع في صفحتي المهارشة والدفاع السيّار، وكان القائد العراقي ماهرًا في تنفيذ مناورة الالتفاف من الجناحين والإطباق على العدو كما

---

(8) Pelletiere and Johnson, p. 9.

أشارت الدراسة المعمقة المذكورة في الهامش (8). ومن دروس هذه المعركة المهمة أن الجيــش الإيراني النظامي فقدَ قدرته على القرار في الجبهة بعد هذه المعركة، وتصاعد مُذّاك دور المعممين ورجال الدين الذين لجــأوا إلى تثوير المتطوِّعيــن غير النظاميين (الباســيج) وتجييشــهم وزجهم، بعد طقوس شــيعية إيرانية، في رحــى المعركة التي حصدت مئات الألــوف منهم من دون اعتبار لأرواحهم وأسرهم، في قتال عبثي كان يمكن التوصل إلى تسوية له بعد أن وافق العراق على المفاوضــات لحلّ النزاع، وتطوعت أكثر من جهة محايدة للتوسط بين الطرفين.

بدأ منذ ذلــك الحين مــا دعــي بالهجمات بـــ «الموجات البشرية» التي استهدفت إشــباع النيران الدفاعية بهجمات موجات الباســيج المتوالية المشــكَّلة حتى من أطفال أســرَهم العراقيون وهم فــي ميعة الصبا والفتــوة، وكان أول اســتخدام واضح لهذه التعبئة (الهجوم بموجات بشــرية متتالية) في معركة البســيتين في 19 تشــرين الثاني/ نوفمبر 1981، حين فاجأت موجات الباسيج الإيرانيــة الهاجمة العراقيين المدافعيــن وأخذتهم على حين غرة، فارتبك القــادة التعبويون العراقيون وبادروا إلــى زج احتياطاتهم في وقــت مبكر، الأمر الذي اســتنزف وأشــبع الخطــة الدفاعية العراقيــة[9]، لكن ما حصل فــي الخفاجية والبســيتين لم يكن إلّا مؤشــرًا أضاء بقوة، دافعًا العــراق إلى الانكفاء إلــى حالة الدفاع وفقدان المبادأة والتخلي عنها، مع أن المبادأة كانت الســبب، إلى

(9) المصدر نفسه، ص 10.

جانب عوامل أخرى، في اندفاع قواته عبر الحدود والإمساك بهذه الفسـح الحاسـمة التأثير، كما سـنرى في ما بعد، لكن المعضلة هنا، أن الجندي العراقي سـيحفر خنادقه، ويشـيّد تحصيناته على أرض لا تعود إليه، على أرض غير عراقية، أي على أرض محتلّة. لا أعتقد أن غير الجندي سيتحسـس ثقلَ الوازع الأخلاقي الذي يجعله يحتل أرضًا لا تعود إليه، بعد اهتـزاز المبرر لاحتلالها في الوقت نفسـه، فما بالك بالدفاع عنها؟ سـتصاب هنا المعنويات بأذى شـديد ويتلاشـى نبل المقصد، بأن الجيش ما اندفع هكذا وبهذا العمق إلا دفاعًا عـن قضية نبيلة هدفهـا أولًا وأخيرًا إبعاد العدوان عن الديار، وقطع الطريق على الشـر لئلا تتاح له الفرصة ويستشري في أرجاء الوطن، كما سيحصل في ما بعد عندما تحوّل العراق أرضًا محتلّة. مـن هنا بدأت معنويات وإرادة القتال تتأكّل، بدأنا نشعر بأن الجندي، بل حتى القائد بدأ يشعر بعظم المسؤولية التي تقـع على عاتقه، ولـو بمنظورين مختلفيـن، فالجندي يرى أنه يدافع عن أرض محتلة سـيكون ثمنها دمه ومسـتقبل أولاده، وهذا يضع علـى كاهله ثقلًا معنويًا كبيرًا ومسـؤولية تهتز نفسـه ومعنوياته من ثقلها، وسيتسـاءل هل سـيطيع الأوامـر وإلى أي مدى، أم سـيهرب من المواجهة أم سيستسلم للعدو؟ كان الصراع بين العاملين المشـار إليهمـا؛ الأول المتمثـل بالانضباط وتنفيذ الأوامر الـذي يعني الصمود حتى الاستشـهاد، والثاني أي الفرار من ساحة المعركة، وما سيجلبه على نفسه من عقوبة قد تصل إلى الإعدام، وتحمُّل أبنائه وعائلته عار الفرار، أو الاستسـلام للعدو المتقدّم المندفع وتحمُّل ذل الأسر على عار الفرار، سببًا في العدد

الكبير من الأسرى العراقيين، خصوصًا بعد تعرّض العدو لمناطق الطاهري والمحمرة (خرمشـــهر) والشوش والفكة وقاطع ديزفول بشـــكل واسع النطاق. وســـتكون مســـؤولية الضابط الآمر/ القائد أكبر، إذ ســـيتحمل وحده مســـؤولية الإخفاق وسيرى أن في رقبته مسؤولية كبرى هي المحافظة على المواضع التي يحتلها بوحداته والدفاع والقتال عنها وعليها حتى الموت وإلا لاحقه عار الهزيمة التي قد يدفع حياته ثمنًا لهـــا، ربما بغير مبرر علمي ومنطقي، وفي حالة الشـــهيد اللواء الركن برهـــان خليل التي أشـــار إليها الفريق الخزرجي في مذكراته برهان ساطع على هذا.

رأينا ابتـــداءً من هذه المرحلـــة مزايدات البعـــض في دوائر معينة مـــن الحزب والأمن العســـكري على حرَفيـــة وقتالية القادة والآمريـــن، ونتيجة وشـــايات محـــددة دفع بعض ألمـــع الضباط العراقيين أرواحهـــم ثمنًا لروايات ثبت في مـــا بعد عدم صحتها، الأمر الـــذي حدا القيادة إلى إخراج تســـوية أطلقـــت على هؤلاء المعدوميـــن تعبير «شـــهيد الغضب». وهو غضـــب كان ينبغي ألا يصل إلى حد إنهاء حياة فرد يتحمل مســـؤولية القتال والمواجهة من دون تمحيص معمق. نعم، يســـتحق بعض المتخاذلين العقاب الصارم إذا ما تمخّض عن تصرفـــه أو ضعف قيادته أو عدم اتباعه الســـياقات العســـكرية في التعامل مع الموقف، انهيـــار الدفاعات أو فشل عمليات التعرض. وهو أســـلوب معمول به في الحروب وواحد من أوجهها القبيحة، لكـــن حتى هذه الحالة عندما تحصل يتحمل من اختار شخصًا غير مناســـب ليقود الرجال، من دون أن يكون متمتعًا برجولتهم ولا بحرَفية القيادة، مســـؤوليةً غير مباشرة

في وضعه رجلًا غير مناســب وغير أهلٍ للقيادة على رأس تشكيل حربي، يشغل مهمة كبيرة وخطرة ضمن سلسلة المسؤوليات التي تشمل الموقف الحربي بشكل عام.

هنا كان من عُيِّن لقيادة لواء مشــاة في عملية الهجوم المقابل لاســتعادة الفاو في عام 1986 من دون أن يكون كفيًّا لقيادة هذا اللواء، وكانــت النتيجة أن تشــتت اللواء ودفع الآمــر حياته ثمنًا لذلك.

كان الخزرجيّ ينافح ويدافع عن مرؤوســيه ممن وضعوا في موقف كهذا على رغمهم، ورأيناه كيــف تدخَّل لإنقاذ حياة العميد الركن برهان خليــل، وكتب إلى القائد العام رســالة لم تصل إليه، وسبق الســيف العذل، وذهب برهان تبكيه أعيننا نحن الذين عرفناه وخبرناه، لكن الخزرجــيّ نجح في حالات أخرى فــي إنقاذ حياة مرؤوسيه وكنت شــاهدًا على حالتين منهما عندما كان قائدًا للفيلق الأول، وكنت أنا في تلك الليلة الضابط الركن المناوب في رئاســة الأركان العامــة، عندما طلب التدخّل لدى القائــد العام للعفو عن أحد آمري أفواج اللواء 515 في قاطع جوارتة، المحكوم بالإعدام لتخاذله وانســحابه من دون أمر، بعد أن تأكد أن الضابط المذكور قد انسحب بناء على أوامر آمر لوائه الذي أكد ذلك وهو في لحظة الإعدام. وأشــار الخزرجيّ إلى حالة أخرى مشــابهة في مذكراته عندما تدخَّل أيضًا لإنقاذ ضابط محكوم بالحكم نفسه لحظة التنفيذ بعد أن تأكد من سلامة موقفه.

- المرحلة الثالثة: الانسحاب إلى الحدود الدولية والدفاع عنها

تفاقم وضع القوات المســلحة العراقية في الأراضي الإيرانية نتيجة الهجوم المقابل الإيراني على القطعات العراقية التي انتقلت إلى الدفاع بعد تلاشــي زخم هجومها وتوقفها على مشارف مدن رئيسة. فشــلت في هذه المرحلة عملية السيطرة على عبادان، ولم يُحقق عبور ترعة بهمنشــير (فــرع نهر الكارون الــذي يصبُّ في الخليج العربي) أهدافــه بالإطباق على عبادان، ولــم تجرِ عملية عبور لشــط العرب باتجاه عبادان من الضفة العراقية، لذلك مُنيت الفرقة التي حققت عبور بهمنشــير وأطبقت على عبادان من جهة الشرق بخســائر كبيرة، بعد أن تلاشــى زخم هجومها واضطرت إلى التوقف، سنرى كيف ناقش الخزرجي هذه العملية وبيَّن نقاط ضعفها.

كان الفيلــق الثالث الذي يقــود الجبهة في هــذا القاطع قد أعد دراسة تحليلية لســاحة العمليات بإشراف القائد اللواء الركن صلاح عارف القاضي، وأرســلها إلى القيادة العامة مع مقترحات محددة، أهمهــا إخلاء الأراضــي الإيرانية والدفــاع عن الحدود العراقية علــى الحدود، الأمر الذي ســيتيح تقصير خطوط الجبهة وتوفير قطعات يمكن المباشــرة في إعادة تنظيمها. كما كان إجراءٌ مثل هذا، لو تم، ســيربك ترتيبــات العدو وسيتســبب في إطالة خطوط مواصلاته، وكان ســيجبره على إعادة التكيف مع الوضع الجديد الذي فُرض عليه. كل هذا ســيصب فــي مصلحة القوات العراقية التي كانت بحاجة ماســة إلى إعادة التنظيم، وإعادة شحذ

المعنويات التي بدأت تتأكّل نتيجة الدفـاع عن أراضٍ معادية من دون مبرر معنوي مقنع.

يلحظ المشـير محمد عبد الحليم أبو غزالة في كتابه الحرب العراقيـة - الإيرانيـة، أن حرية الحركـة والقدرة علـى المناورة والتنقل باختيار الأهداف على طـول الجبهة من جانب الإيرانيين كانت بسبب سلبية المخطّط والقائد العراقي في اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع العدو من التحشد، ومنعه من الاحتفاظ بالمبادأة[15]. ما جاء به المشير أبو غزالة ليس جديدًا، بل كان متداولًا في دوائر تخطيطية وقيادية عراقية متعددة، إلا أن سطوة المدرسة العسكرية التقليدية على مهام التخطيط والعمليات كانت شـديدة إلى الحد الذي نتج منه بطء في ردة الفعل، وفي محاولة سد الثغرة بالركون إلى الدفاع العـزوم، وهو ما تحقق فعلًا. فضـلًا عن أن مجريات الأمور تثبـت أن الإيرانييـن لم يتمكّنـوا في هـذه المرحلة من السيطرة على أراضٍ عراقية ذات قيمة تعبوية أو استراتيجية فائقة، وأيّدت كتابات غربية متعددة وجهة النظر هذه، وبالأخص كتابات كلية الحرب الأميركية المشـار إليها في هـذا التقديم في أكثر من مجـال.

ما يمكن الإشـارة إليه هنا أنه كان على المخطـط العراقي أن يتبصر ويضع صفحات متتالية لحرب نشـبت علـى حدود البلدين،

(15) انظـر: محمد عبد الحليم أبـو غزالة، الحرب العراقيـة الإيرانية، 1980-1988 ([د. م.: د. ن.]، 1993)، ص 106-139.

وحقق العراق فيها خرقًا واضحًا لدفاعات العدو في مناطق مهمة من الجبهة. كان من المفروض أن يُقرر مسبقًا أي مدن يجب احتلالها والقتال دفاعًا عنها، وأي مناطق ذات أهمية تعبوية واستراتيجية كان يجب توجيه الجهد إليها ومسكها وعدم التخلي عنها.

عندما نناقش هذه الأمور يتضح لنا أن ساحة القتال الرئيسة هي البصرة، ومن هنا ستُعطى صدقية للدفاع عنها بتنظيف المقتربات المعادية التي تهددها، ومن هنا سيكون احتلال جزيرة الخضر (عبادان) مفيدًا، بل كان يجب أن يكون الهدف الأول الذي تتوخّاه القوات العراقية، وكان سيتحقق بخسائر أقل من تلك التي تحمّلتها القوات العراقية في ما بعد. كان احتلال جزيرة الخضر (جزيرة عبادان) سيحقق للجانب العراقي هدفًا مهمًّا وتساوميًا من أهداف الحرب، لأنه كان سيحكم السيطرة على ضفتي شط العرب ويعيده نهرًا عراقيًا خالصًا، بعد أن أُجبر العراق على التخلي عن نصف مجراه في اتفاقية 1975 بين العراق وإيران التي دُفع بها شط العرب ثمنًا لسحب إيران تأييدها وإسنادها التمرّد الكردي.

لو طهّر العراقيون جزيرة عبادان لاستندوا إلى خط دفاعي متين تشكّله ترعة بهمنشير، ولأسندوا عمق دفاعاتهم على الأرض العراقية عبر شط العرب الذي كان بإمكان هندسة الجيش العراقي إنشاء عدد من الجسور والمعابر عليه، كما فعل الإيرانيون بعدها، عندما سيطروا على الفاو في عام 1986، بل إن هذه العملية الإيرانية لم يكن يقيّض لها أن تتحقق، لو كان للعراقيين وجود على

الضفة البعيدة من شط العرب مع عدم وجود موطئ قدم إيرانية فيها وفي جزيرة الخضر (عبادان).

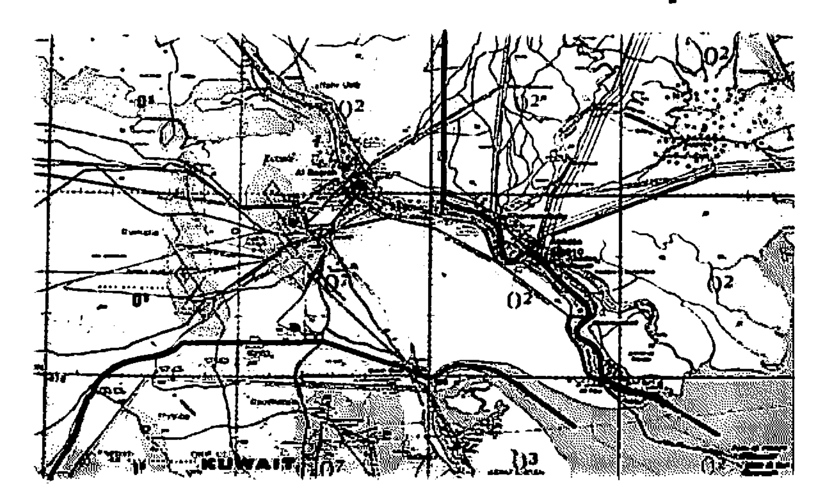
على الرغم من ذلك، ومــع أن الخلافات الحدودية تُعد من أهم أســباب النزاع بين الدول، كان يمكــن أن يقود تغليب علاقة حســن الجوار والنيات الحســنة، إلى إيجاد حل للنزاع الحدودي العراقي - الإيراني مهمــا كانت تعقيداته، كمــا حدث على وجه ما في أثناء الحقبة الملكية فــي العراق. حينها كانت العلاقات بين البلدين أكثر دفئًا منذ الزيارة التي قام بها مؤســس العراق الحديث الملك فيصل الأول إلى طهران، واستقباله بحفاوة من جانب شاه إيران مؤســس الأســرة البهلوية رضا شــاه، ثم عقد معاهدة سعد آباد (في عام 1936) مع كلٍّ من إيران وأفغانســتان وتركيا، مرورًا باتفاقية 1937 لتنظيم الملاحة في شــط العرب، علاوة على عقد البلدين معاهدة حســن الجــوار خلال زيــارة الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله إلى إيران في عام 1949، إذ تعهّد الطرفان بالتوصل إلى تســويات للقضايا الحدودية المعلّقة بينهما، وصولًا إلى انضمــام البلدين إلى حلــف بغداد في عــام 1955. وفي ما يخصّ مشكلة شط العرب توصّل الطرفان في عام 1957 إلى آلية إدارة مشتركة للملاحة في الشط، وإلى إحالة موضوع شط العرب على وسيط سويدي يتولّى دراسته وتقديم مقترحاته للطرفين[11].

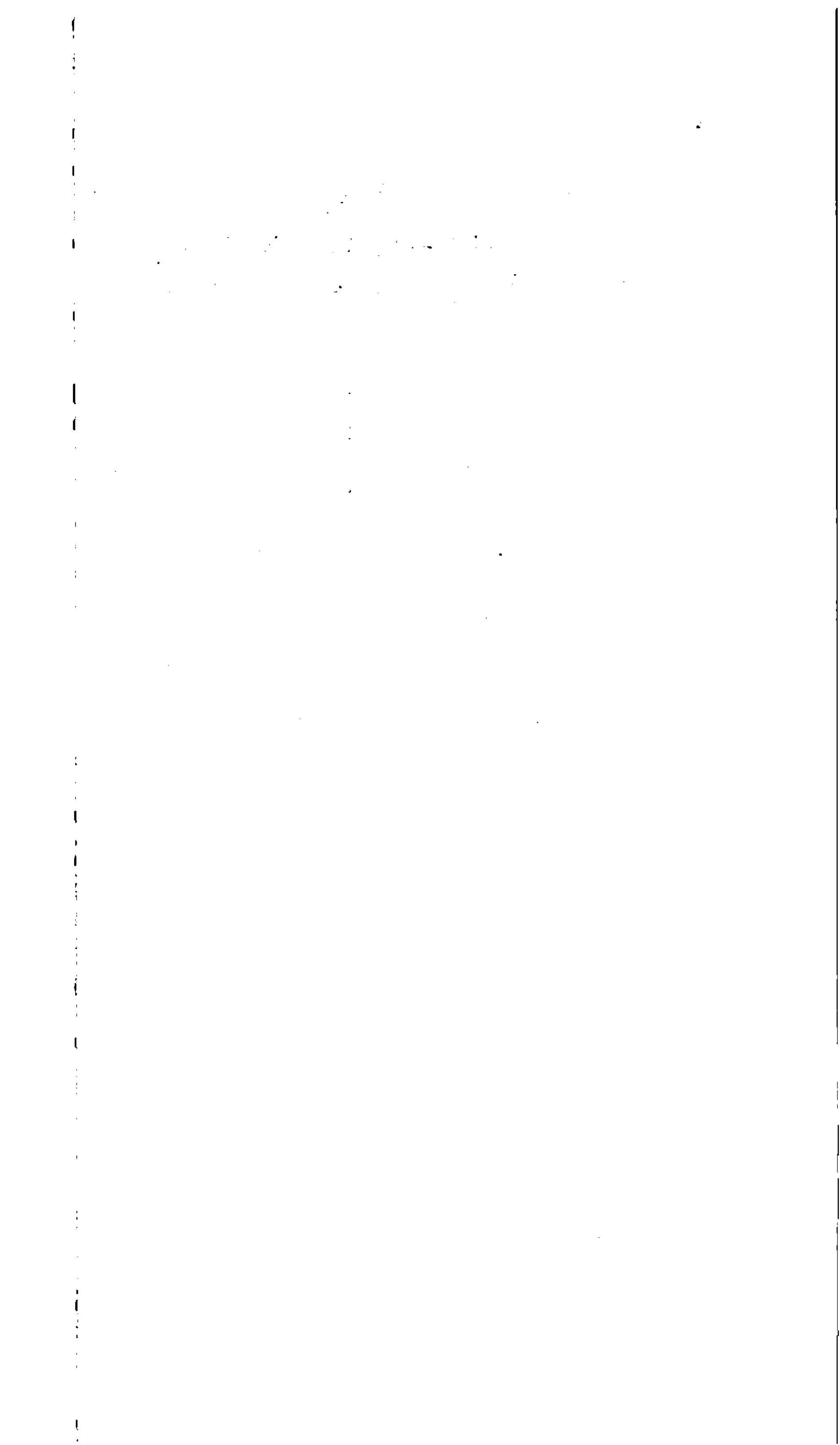
(11) Efraim Karsh, «Geopolitical Determinism: The Origins of the Iran-Iraq War,» *Middle East Journal*, vol. 44, no. 2 (Spring 1990), p. 262, and Rouhollah K. Ramazani, *Iran's Foreign Policy, 1941-1973; a Study of Foreign Policy in Modernizing Nations* (Charlottesville: University Press of Virginia, [1975]), p. 402.

الخريطة (3 - 1)

موقع جزيرة الخضر (عبادان) وخطورتها الاستراتيجية

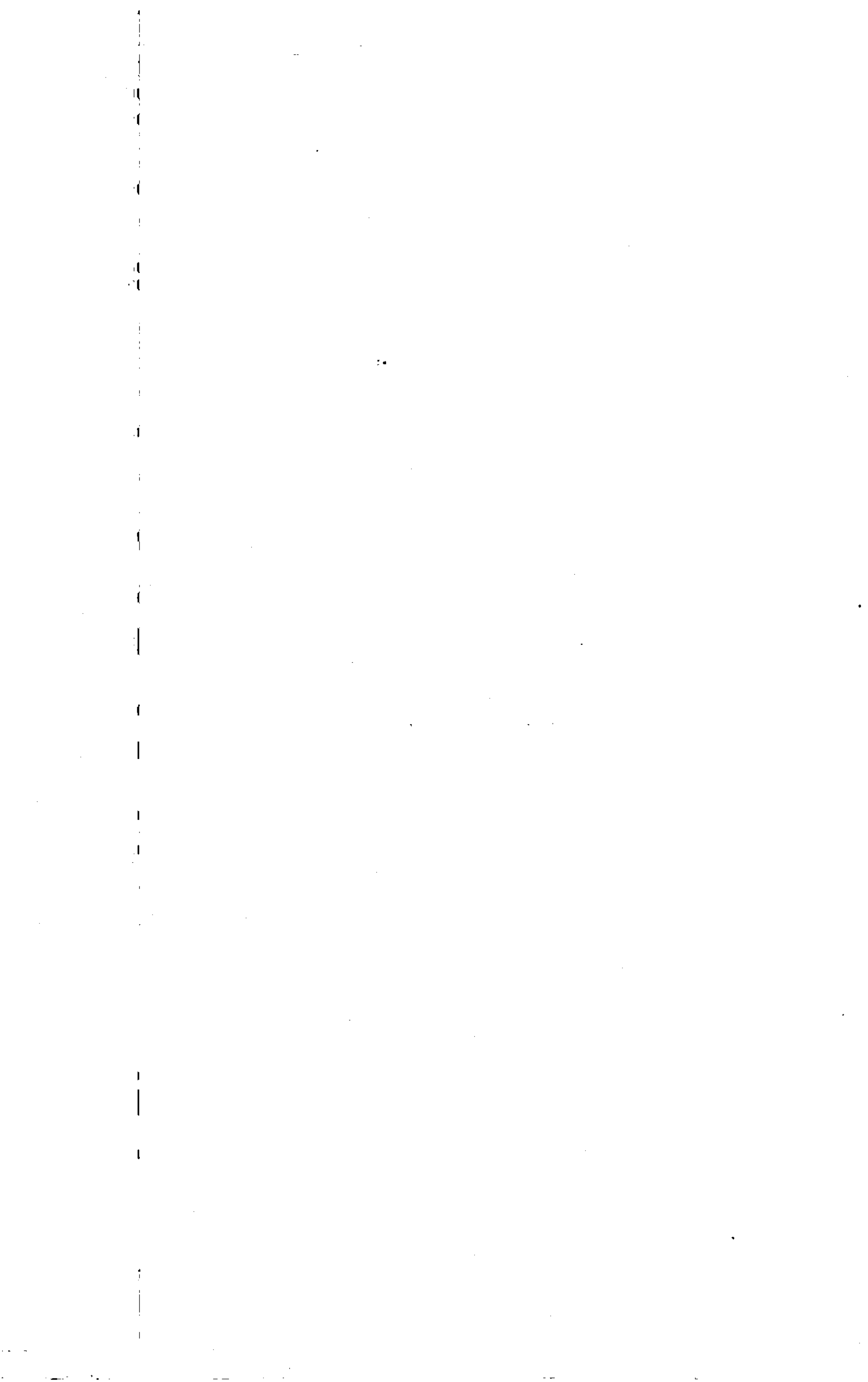
التي كان يجب أن تكون الهدف الأول للقوات العراقية





الفصل الرابع

إخفاقات ونكسات



التحشـد (Concentration) والمبـادأة (Initiative) مبدآن خطران ومهمان من مبادئ الحرب حصل فـي تطبيقهما خلل من الجانب العراقي، بسـبب التردد والتحسـب وقلة التدريب، نتيجة الخسائر التي مُنيت بها القوات العراقية طوال سنتين من القتال، لكن العراق نجح بعد انسـحابه من الأراضي الإيرانية في أن يؤمّن التحشد في الأمكنة الدفاعية على طول الجبهة، ونجح في بناء دفاع قويٍّ، حيث استفاد من الموانع الطبيعية مثل الجداول والتـرع والبحيرات في إسـناد أجنحته الدفاعية عليها. وكان جهد هندسة الميدان العراقي مسـترعيًا النظر في تفاعله مع تطور التخطيط الدفاعي، وأُنشـئت سلسلة من الموانع والمقتربات والطرق والجسور التي سهّلت أمور التنقل الميداني في سـاحة العمليات وما وراءها. ولمّا تبيّن في ما بعد أن هذا الجهد لم يعد كافيًا لتلبية متطلبات الجبهة، أسعف جهد الدولة المدني القوات المسلحة في تأمين متطلباتها الهندسية. كان تسخير الجهد المدني الهندسي اختبارًا ناجحًا لخطة التعبئة والنفير التي تهدف إلى توجيـه جهد الدولة لخدمة جهد الدولة الحربي في أثناء النفير والتعبئة.

كان لفقدان العراق المبادأة مـن وجهة نظرنا مبررات منطقية، لعل في مقدّمها تصوّر قد يكون اسـتقر في ذهن القيادة العراقية بأن

العالم سيُبادر فورًا إلى إيجاد حل يعيد إلى العراق شط العرب وينهي القتال لعدم قدرته على تحمّل انقطاع الإنتاج النفطي للعراق وإيران، فيما لو استمرت الحرب كما سبق وأسلفنا، لكن ما حصل هو أن العالم لم يستطع ضبط إيقاع الصراع ووضع نهاية له، وكأن استمرار هذه الحرب هو هدفٌ بحد ذاته. هنا كان على القيادة العراقية أن تبني خططها لا على ما تتمنّاه، بل على ما يمكن أن يحصل. هكذا ركنت القيادة العراقية إلى الدفاع على أرض العدو، وبهذا تخلت عن المبادأة وتلقفها العدو الذي ظل يمسك بها ويعيد الإمساك بها من خلال سلسلة من العمليات التي أطلق عليها مسميات ذات صفة عقيدية دينية، بل شيعية أحيانًا. بناء على ذلك بدأت عمليات «مسلم بن عقيل» على مندلي، وعمليات «والفجر» المتسلسلة على شمال العراق، و«النصر»، و«كربلاء» بعملياتها المتسلسلة. فقدت إيران المبادرة نهائيًا في ختام هذه العمليات وتحوّلت المبادأة إلى العراق عبر سلسلة من الإجراءات التي عالجت الموقف المتردي للقطعات العراقية في الجبهة، وتعرّضها لكلٍ من الاستنزاف والانهاك المتصاعد مع إطالة مدة العمليات، فضلًا عن استهداف المدن والمدنيين كأهدافٍ عسكرية بغية تدمير معنويات العراقيين ودفعهم إلى التمرّد والعصيان من جهة، والتأثير في معنويات المقاتل وإشعاره بعدم أمانه هو في الجبهة، كما بعدم تمتع عائلته وأهله بالأمن في الداخل، نتيجة حرب المدن. كانت مدينة البصرة طوال مدة الحرب مدينة جبهة تمسّك بها سكانها ولم يُخلوها ودافعوا عنها بمعنويات عالية حتى انتهاء الحرب.

كان الاستنزاف المتبادل أحد أهداف الطرفين من المعارك

العنيفة، حيث هدف كل منهما إلى اســتغلال كل ما تتيحه له عملية التحشــيد المادي والمعنــوي وتحالفاته الدولية ومســتوى تقنيات القتال المتاحة له. كان العراق قد أعلن أن العالم كله ســاحته، عدا الكيان الصهيونــي للحصول على حاجاته، هكــذا دخلت البرازيل والأرجنتين والصين وتشــيلي حتــى جنوب أفريقيــا ضمن زبائنه المورّدين. وحده، الكيان الصهيوني لم يكن من مورديه.

اختــارت إيــران مورّديها ومن ضمنهــم «الشــيطان الأكبر» وإســرائيل[1]. وقيّض للتعاون الإيراني - الإســرائيلي - الأميركي أن يفتضح عندما كُشــف الســتار عن عملية «إيــران كونترا» التي نظّمها المقدّم أوليفر (إيلي نورث) المســؤول عن العمليات السريّة غير القانونيــة (Clandestine Operations) من هيئة ركن مجلس الأمن القومــي الأميركي، والتي هدفت إلى الاســتفادة مــن عملية إمداد إيران بالعتاد (الذخيرة)، والمــواد الاحتياطية (قطع الغيار) وبعض الأســلحة، لتحصيل وفر مالي تمــوَّل بموجبه عمليــات حركات الكونترا التي منع تشريع الكونغرس المسمى (تعديل بولون) (Bolan Amendment) تسليحها أو تمويلها في الســلفادور، لشيوع انتهاكاتها حقوق الإنســان. وعند بروز الحاجة إلى تســليح إيران، للمساعدة في تحرير رهينة أميركية احتجزها في لبنان عملاء إيران، ولأهداف

(1) تعد الذرائعية (البراغماتية) إحدى وسائل السياسة الخارجية الإيرانية منذ أقدم العصور. وقد رصدها البروفســور من أصل إيراني (R. K. Ramazani) صاحب الكتابات المتخصصة في السياســة الخارجية الإيرانيــة في مختلف الحقب التاريخية. له دراســة مميزة عن الأيديولوجيا والبراغماتية في السياسة الخارجية الإيرانية. انظر: Rouhollah K. Ramazani, «Ideology and Pragmatism in Iran's Foreign Policy,» *Middle East Journal*, vol. 58, no. 4 (Autumn 2004), pp. 549 - 559.

أخرى نعتقد أن مـن ضمنها إطالة أمد الحرب لاسـتنزاف البلدين المتحاربين، تـم ترتيب هذه الصفقات السـرية عبر تاجر من أصل إيراني[2].

في هذه المرحلة حاولت إيران بجهد مركّز وعبر سلسـلة من العمليات المنتشـرة على طول الجبهة العراقية - الإيرانية اختراق المنظومـة الدفاعيـة العراقية، خصوصًـا من أوهنهـا دفاعًا، كما حصل بعد اجتيـاح الإيرانيين هور الحويـزة وعبورهم هذا المانع المائي الاسـتراتيجي الذي لا يتيـح لأيٍّ كان الحركة عبره بحرية. نجحت إيـران إذًا في عبور هـور الحويزة، والنفـوذ إلى الطريق العام لبغداد - البصرة جنوب قلعة صالـح (انظر خريطة العراق)، واندفعت بعد ذلك بعملية إحاطة غير ناجحة، كان هدفها الاندفاع إلى البصرة من الغرب وتطويقهـا واحتلالها (كان الهدف الإيراني طوال مدة الحرب احتلال البصرة وحرمان العراق من هذه المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية الحيوية)، وهو هدف يدل على حصافة المخطّط الاسـتراتيجي الإيراني الـذي ركّز علـى الهدف الذي يصيـب العراق في مقتل. يـرى بليتيير في كتابه السـابق الذكر أن اسـتمرار العراق في البقاء بعد قطع البصرة عنه يُعد أمرًا مشكوكًا فيه، لذلك فإن مجرد نجاح العراق فـي إيقاف الموجات الهاجمة وتدميرها، ومجرد إحباطه أي جهد إيراني استهدف البصرة، ومنعه

---

(2) للاطلاع علـى تفاصيل أكثر عن الحادثة التي هـزت أخلاقيات إدارة ريغان، انظر ملف أولي نورث في موقع مجلس الأمن القومي: National Security Archive, «The Oliver North File: His Diaries, E-Mail, and Memos on the Kerry Report, Contras and Drugs,» (National Security Archive Electronic Briefing Book; no. 113, 26 February 2006), on the Web: <http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/index.html>.

في الوقت نفســه القطعات الإيرانية من التمركز الفاعل المؤثّر في أراض عراقية ذات أهمية اســتراتيجية أو عملياتيــة، يُعد بحد ذاته إنجازًا كبيرًا[3].

- المرحلة الرابعة: مرحلة الاستنزاف واحتلال الفاو

تحوّلت هذه الصفحة إلــى صفحة اســتنزاف إيراني لموارد العــراق الدفاعيــة، ومحاولة مدروســة لتدمير معنويــات الجبهة الداخليــة، الأمر الذي دفع إلى اســتهداف الداخــل العراقي ومن ضمنه بغداد، بالقصــف الصاروخي، ثم إخضــاع البصرة لقصف مدفعي يومي شــكّل ســمة من ســمات حياة المدينــة التي عاش ســكانها تحت وابل القصــف المدفعي فــي أثناء هــذه الحرب الطويلة، ورفضــوا تركها ومغادرتها وتحملــوا عناء الحرب كأنهم جنودٌ مقاتلون في جبهة قتال.

اضطر العراق إلى خوض الحرب نفســها مــع إيران (حرب المدن)، وبزخم صاروخي وجوي أكبــر، خصوصًا بعد نجاحه في تأمين مواقف جوية ملائمة لمصلحته في جو المعركة، ونجاحه في تطوير إمكاناته فــي التقانة الصاروخية، الأمر الــذي أتاح له تطوير مديات صواريخ ســكود الســوفياتية من نحو 250 كلم إلى 350، وإلى 600 كلم، وأنشــأ جيلًا من هذه الصواريخ أطلق عليه مسمى «الحســين»، بما له من رمزية لدى كلٍّ من شــيعة العــراق وإيران،

---

(3) Stephen C. Pelletiere, *The Iran-Iraq War: Chaos in a Vacuum* (New York: Praeger, 1992), pp. 13-18.

علاوة على نجاحه في الوصول إلى مدى 950 كلم بصواريخ أطلق عليها اســـم «العباس» أخ الإمام الحسين غير الشقيق الذي استشهد معه في معركة الطف، والذي يحمل اسمه قدسية خاصة لدى شيعة العراق، بحيث يخشـــى من يُقسم باســـمه كذبًا من وبال ينزل عليه. وكانت صواريـــخ «العباس» هذه هي الوبال الـــذي أنزله العراقيون بطهران وقم والمدن البعيدة الأخرى في العمق الإيراني.

حســـم العراق معركة المـــدن الصاروخيـــة لمصلحته، لكن البصرة المدينة العراقية الثانية ظلـــت تحت مدى القصف المدفعي الإيراني اليومـــي، الأمر الذي حوّلها مدينةَ مواجهـــةٍ جبهويةٍ فعلًا، كمـــا أوردنا آنفًـــا، وبدا أن هذه المدينة تشـــكّل حقًـــا نقطة ضعف الاستراتيجية الدفاعية العراقية، بما لها من أهمية استراتيجية خطرة على التخطيط الدفاعي الاستراتيجي العراقي. يعود السبب الرئيس الذي جعل من البصرة نقطة ضعف اســـتراتيجية خطرة إلى إخفاق القوات المسلحة العراقية في تحقيق أهداف الاستباق الأولى، وهي إبعاد قوات العدو عـــن الأراضي والمدن العراقية، وعند مناقشـــتنا هذا الإخفاق في قاطع البصرة نـــرى أن الإخفاق في تحرير جزيرة الخضر (عبادان) وانهيار الدفاعات العراقية على مشـــارف الأحواز هما الســـبب الذي فتح المجال للقوات الإيرانيـــة المتفوقة بالقوة البشرية، والمشحونة بروح الاستشـــهاد لاختراق حدود العراق في قاطع البصرة حتى نهاية الحرب.

من هنا انصبّ الجهد العراقي بلا كلل على إنشاء مانع دفاعي كبير ومعقد، يمنع الإيرانيين من اختراقـــه والوصول إلى البصرة أو

التفكير فـــي تطويقها، لذلك أقام مانعًا دفاعيًّـــا يعتمد على عمليات إغمارٍ للأراضي الواقعة على الحدود، فضلًا عن بحيرة الأســـماك التي كانت تشكّل المانع الرئيس تجاه العدو. وساعدت استراتيجية الإغمار في تقليل قدرة العدو على الهجوم الجبهوي واسع النطاق، كما ســـاعدت القوات العراقية في الاقتصاد بالقـــوة والجهد وتهيئة القطعات للهجـــوم المقابل الفوري، لحرمان العدو من الاســـتفادة من كلٍّ مـــن المبـــادأة التي دأب علـــى التمتع بها مـــن جهة، ومن التفوق البشـــري الذي وظّفه بهجمات الموجات البشرية المتوالية التي تهدف كما هو معروف إلى إشـــباع المنظومة الدفاعية العراقية. كان تسلسل القدمات (Echelons) في الهجمات الإيرانية يعتمد على الأطفال والفتية لفتح حقول الألغام، يتبعهم الباسيج (قوات التعبئة) ثم الحرس الثوري ثم القطعات النظامية للجيش التي غالبًا ما تكون مدرعة أو آلية[4].

أفادت ســـنوات الاســـتنزاف الإيراني الموجّه تجـــاه العراق القوات العراقية فـــي تطويرها فكرها العســـكري، ليتعامل مع نمط جديد وغير مســـبوق من الأعداء الذين يتمتعون بالإصرار إلى أبعد الحدود، الأمر الذي جعل القيادات العراقية بالتتابع جاهزة للتعامل مع أي تطور يحصل فـــي الجبهة. يقول ســـتيفن بليتيير ورفاقه في كتابهم **القدرة العراقية وأمن الولايات المتحدة في الشـــرق الأوسط** في معرض دراســـتهم وتحليلهم الحرب العراقيـــة - الإيرانية بهذا

(4) أصدرت مديرية التطوير القتالي كتابًا عن تعبئة الموجات البشـــرية بقلم اللواء الركن علاء الدين حسين مكي خماس.

الصدد: «وبالتحليل الشامل للأداء العراقي طوال فترة الحرب أثبت العراقيون أنهم خبراء في حـــل المعضلات، وكان ذلك واضحًا في إدارتهـــم وتعاملهم مع مرحلـــة الدفاع الســـاكن، إذ حاولوا تجنب المجابهة لحين سنوح الفرصة التي تساعدهم في توظيف المواقف لصالحهم»[5].

تركّز جهد القيـــادة العراقية في هذه المرحلة على إيجاد حلول عمليـــة لمعضلة طـــول الجبهـــة وانفتاحها، ومحدوديـــة القطعات القائمـــة بواجب الدفاع قياسًـــا على طول الجبهة، وفق القياســـات التعبوية العســـكرية. فأوجدت حلولًا مرحليـــة، منها زيادة وتكثيف عدد الموانع الهندســـية أمام الخطوط الدفاعيـــة، ومن هنا جاء زرع مساحات كبيرة بحقول الألغام لاســـتيعاب موجات الهجوم بقوات المتطوّعين الذين كان يقودهم رجال دين صغار المرتبة. ثم لجأت القوات العراقية إلـــى تعبئة (تكتيك) الإغمـــار، أي إغمار المناطق المفتوحـــة أمام القطعات وعلـــى أجنحتها بالميـــاه المتوافرة بكثرة لتقليص أطوال الجبهات. وغير ذلك من الإجراءات التي شـــكلت حلولًا عملية، لكن غير مثالية لمعضلة حقيقية كانت تعانيها القوات العراقية في الجبهة. وســـيفرض عليها موقف التحول إلى التعرض في الأشـــهر الســـتة الأخيرة من الحرب ضرورة إزالـــة، أو تقليص عدد هذه الموانع، خصوصًا الإغمـــار لتأمين مرور القوات العراقية الهاجمة عبرها. وهنا من المفيد الإشارة إلى أن هذه مهمة اعتمدها

(5) Stephen C. Pelletiere, Douglas V. Johnson and Leif R. Rosenberger, *Iraqi Power and U.S. Security in the Middle East* (Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 1990), pp. 35-36.

الفريق الخزرجي، وساعد جهد الدولة المدني الهندسي الكبير في تحقيقها بعمل إعجازي، من دون مبالغة.

وقع الإيرانيون نتيجة التنافس الحاد بين مؤسستي الجيش والحرس الثوري في خطأ قاتل عندما تخلوا عن استراتيجية الاستنزاف التي اتّبعوها في مرحلة الحرب الثالثة، وعادوا إلى أسلوب الهجمات المباشرة على القوات العراقية، فأتاحوا للعراقيين الحرية في انتخاب الطرائق والأساليب اللازمة لمواجهتهم بحسب تطورات الموقف وكل حالة. من الأمور المعروفة في الحروب، خصوصًا الحروب الدفاعية التي تستغرق زمنًا طويلًا، أن كلا الطرفين المتحاربين سيتعرف إلى عوائد الآخر وطريقة تصرّفه في موضعه الدفاعي، وسياقات الأعمال اليومية التي يمارسها. هكذا كانت تصرفات العدو مدروسة مرصودة بالنسبة إلى العراقيين، ولم تخطئ إلا في حالة واحدة، عندما حققت إيران مباغتة تامة على المستوى العملياتي وتمكّنت من احتلال الفاو في عام 1986[6].

ناقش ديفيد سيغال ذلك في دراسته عن الحرب العراقية - الإيرانية المنشورة في صيف 1988 في مجلة **شؤون خارجية**. يعجب سيغال كيف أن 25 هجومًا نفّذتها إيران على المواضع العراقية منذ عام 1982 لم تنجح في كسر الدفاعات العراقية بشكل جدي إلا في الفاو (1986)، وحلبجة (1988)، على الرغم مما أورده من أرقام التفوق الإيراني العددي (1:3) لمصلحتها. وعزا

(6) David Segal, «The Iran-Iraq War: A Military Analysis,» *Foreign Affairs*, vol. 66, no. 5 (Summer 1988), pp. 947-952.

كثيرًا من الإخفاقات الإيرانية إلى تدمير الخميني مؤسسة الجيش وإعدامه ما يقرب من 5000 من كوادر الضباط. وعلى الرغم من أن هناك شيئًا من الصواب في هذا الطرح، فإن ما فات سيغال هو أن الدفاع العراقي كان ناجحًا جدًا في تصميمه على امتصاص زخم الهجمات الإيرانية وإجهاضها، بالاستفادة من الكثافة النارية الهائلة التي أمّنتها المدفعية في ساحات القتال، ومنظومة الموانع الهندسية التي سبقت الإشارة إليها، وكذلك بسرعة ردات الفعل بتنفيذ الهجمات المقابلة لإزاحة العدو من مواقعه، قبل استقراره فيها وإنشائه مواضع دفاعية. كان الفشل في تأمين المتطلبات الدفاعية التي سبقت الإشارة إليها هو السبب الذي تمخضت عنه نكسة القوات العراقية في الفاو في عام 1986، وكذلك بطء ردة الفعل في تنفيذ هجمات مقابلة منسقة وسريعة، كانت ستتيح لها قلع العدو وطرده من الأماكن التي احتلها، قبل أن يُتاح له الاستقرار وإنشاء منظومة دفاعية يسهل الدفاع منها. هذا هو سبب الإخفاق في الفاو، إذ بوغتت القوات العراقية وأُخذت على حين غرة نتيجة المخادعة الكبرى التي تعرّضت لها الاستخبارات العراقية، وأشار الفريق الخزرجي في مذكراته إلى هذه الحالة بالتفصيل، وكيف أنه تحسَّب من موقعه كمراقب وليس كقائد، وأبلغ زميله قائد الفيلق السابع بذلك. وبالنسبة إلى خسارة حلبجة أوضح في مذكراته أيضًا أن فشل القائد الميداني في الحفاظ على الأرض الحيوية في قاطعه الدفاعي (وادي زلم) كان السبب في انهيار دفاعاته وفي أسره.

مثّلت معركة الفاو شباط/آذار - نيسان/أبريل 1986 مرحلة

انتكاســة خطرة للتخطيط العملياتي العراقي، كما أنها مثّلت مباغتة استراتيجية فائقة ستنعكس تداعياتها على الفكر الاستراتيجي العراقي وما ســيتمخض عنه من تخطيــط اســتراتيجي وعملياتي وتعبوي. وأشارت مذكرات الفريق الخزرجي إلى هذا الموضوع والملابسات التــي أحاطت بــه، والمخادعة الاســتراتيجية التــي كان المخطّط العراقي أحد عوامل نجاحها، إذ ثبت أن المخطّط العراقي، خصوصًا عنصر الاســتخبارات فيه انســاق كما ذكرنا إلى معلومات مضلّلة، نقلها الأميركيون عبر جهات صديقة وشــقيقة توحي بأن الإيرانيين سيجددون هجومهم الشامل عبر منطقة هور الحويزة لتطويق البصرة من الشــمال والغرب، لذلك فإن آراء أبداها كاتب المذكرات عندما كان قائدًا رديفًا لقائــد الفيلق الرابع لم تجد آذانًا صاغية لدى القيادة العامة، وأصرت الاســتخبارات على دقة معلوماتها، وبهذا ساهمت في نجاح المخادعة الاســتراتيجية الإيرانية التي ساهم الأميركيون في تحقيقها، وهجمت إيــران من مكان لم يكــن متوقعًا ولم يكن مُدَافعًا عنه بكثافة، ونجحت في احتلال الفاو وقطعت اتصال العراق بالخليج من جهة شــط العرب، وهددت اتصال العراق بالخليج من جهة خور عبد اللــه، وأعلنت إيران أنها أصبحــت بتماس مع دول الخليج العربية من مكانها هذا الذي احتلته.

كان لاحتلال الفاو في عام 1986 تداعيات خطرة على كلٍّ من التوازن الاستراتيجي في الخليج العربي والموقف الجيوستراتيجي فيه لأن دول الخليج العربية التي كانت تعوّل كثيرًا على قدرة العراق على احتواء إيــران توصّلت إلى قناعات جديدة بعد فشــل العراق في إخراج إيــران من الفاو. وكانت الكويت الأســرع إلى التحرك،

إذ بدأت بعملية استدعاء الولايات المتحدة الأميركية إلى الخليج العربي عبر اتفاقية تبديل العلم على ناقلاتها النفطية (Reflagging)، وذلك برفع العلم الأميركي عليها لتكون في حمايته، ومن هنا دخلت بحرية الولايات المتحدة الأميركية إلى الخليج العربي، وساهمت في هذه الحماية التي تصاعدت حتى قيام القوات الأميركية بتوجيه ضربات جوية/ بحرية محددة إلى منشآت وناقلات إيرانية[7]. ومع ذلك نجد أن هنالك مبالغة من ناحية المحلّلين الأميركيين في إضفاء دور أساس على التورط الأميركي في الخليج العربي في القرار على نتيجة الحرب العراقية، وعلى الرغم من أن التورط الغربي في الصراع من جانبه البحري على الأقل، مثّل معضلة جديدة أضيفت إلى معضلات إيران الكثيرة المتأتية من لاعقلانية سياستها الخارجية، فإن هذا التدخل لم يكن هو السبب الحاسم في إنهاء الحرب، بل الفضل للتعرض العراقي واسع النطاق الذي أنهى الصراع بتدمير القوة العسكرية الإيرانية وقدرة إيران على مواصلة الصراع.

أذكر من مرحلة وجودي في الأركان العامة آنذاك كم كانت هذه المخادعة الإيرانية مؤلمة للقيادة العليا، وكم بذلت القيادة من الجهد والدماء في محاولة استعادة الفاو التي مثّلت أتون استنزاف فائق، إذ دفع العراقيون دماءً غالية لاستعادتها من دون جدوى، وأذكر بألم كيف أن سبعة آمري ألوية استشهدوا على ما سمي بمعركة العقدتين 14 و15 في المملحة، آخرهم ابن دورتي

(7) Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War.*

(دفعتي) الشـــهيد العميد اهتيمي نكه غيـــدان الدليمي، حتى قررت القيادة التوقف أخيرًا عن هجماتها المقابلة لأنها تحوّلت إلى مقبرة للقوات الهاجمة. كانت أسباب خسارة العراقيين الفاو وفشلهم في استعادتها فورًا بهجوم مقابل (وهو ما كان يحصل في صد هجمات إيرانية على قواطع أخرى) ما يلي:

- صعوبة الأرض: فأرض الفاو رخـــوة ملحية تجعل الحركة عليها محددة بالطرق الممهدة والمعبدة، الأمر الذي يجعل الحركة خارجها صعبة للغاية ومنهِكة.

- بطء ردة فعل القيادة الميدانية وعدم قدرتها على اســتيعاب الذي حصل ومداه، وانقطاع اتصالاتها بالقوات المدافعة في العمق، وعدم تأمين متطلبات قيامها بهجمات مقابلة بعد تبديل جبهتها من البحر نحو الداخل. وأضـــربُ مثالًا على ذلك لواء المشـــاة 101 الذي ظل يقاتل بعد انقطاع مواصلاته إلى أن نفد عتاده (ذخيرته).

- لاســـتعادة الفاو لا بدّ من القيام بهجمات جبهوية على عدو متحصن بشـــكل جيد، ويمتلك النـــار المصوّبة، الأمـــر الذي يزيد خسائر القوات الهاجمة.

- اســـتند الدفاع المعادي فورًا إلى منظومة الســـداد المحيطة بالمملحة، وهي ســـداد متقاطعـــة طولًا وعرضًـــا تحيط بأحواض تُجفّف فيها مياه البحر لاســـتخراج الملح. أُطلق على نقاط تقاطع الســـداد اســـم العقد ومُنحت أرقامًا. أتذكر كم ابتلعـــت العقدتان 14و15 من خيرة شبابنا ضباطًا ومراتب، كما بينتُ آنفًا.

- استحالة المناورة الجانبية ومناورة ضرب الجناحين، وما كان متاحًا هو عملية إنزال بحري فحسب خلف خطوط العدو، ولم يكن بالإمكان تنفيذها لعدم اكتمال التدريب عليها حينئذٍ.

- أنشأ العدو على عجل منظومة أبراج مرتفعة لتشرف على ترتيبات العراقيين الدفاعية، وللتعرف إلى نيّاتهم الهجومية والتعرضية.

اتّخذت فورًا القرارات لإعداد ميدان المعركة في الفاو بشكل جديد وعلى أسس تخطيطية جديدة وبوشر بها طوال المتبقي من عام 1986، وأوائل عام 1987، حتى تم التخلي عنها لأسباب فرضتها تطورات المواقف في الجبهة. صدر في هذه الفترة قرار مجلس الأمن رقم 598/ 1987 الداعي إلى وقف إطلاق النار الذي دعا الطرفين إلى التفاوض، وهو قرار قبِلَه العراق توافقًا مع استراتيجيته في العمل على إنهاء الحرب بأسرع ما يمكن، ورفضته إيران، بل أصدر الخميني حكمًا بإنهاء الحرب لمصلحة إيران في ذاك العام. بدأت إيران تعرُّضها على الجبهة العراقية بسلسلة عمليات أطلقت عليها اسم «كربلاء»، لما لهذا الاسم من معنى مقدس لدى الشيعة، باعتبار كربلاء هي أرض معركة الطف التي تمثّل في الموروث الشيعي قمة الاستشهاد والتضحية والفداء.

نجحت سلسلة عمليات «كربلاء» في إحداث خروقات على الجبهة في الشمال والجنوب، وحققت اختراقًا واضحًا في الشمال عندما نجحت في احتلال قمم الجبال المشرفة على سد

دربندخان الاســـتراتيجي، ثم احتلال حلبجة، إلا أنها فشلت فشلًا ذريعًا في الجنوب عندما اســـتهدفت البصرة بإحاطتها من جنوبها، بعد خرق الدفاعات العراقية المتمركزة في قاطع الفيلق الســـابع. ومثّل فشـــل الخرق في جزيرة أم الرصاص جنوب البصرة فشـــلًا حقيقيًا للجهد الإيراني في احتلال البصرة. يشـــير بليتيير وزملاؤه بهذا الصدد إلى أن فشـــل هذه العملية «كربلاء 5» هو الذي رسم النهاية لقدرات إيران التعرضيّة وأفسح للعراق العمل على استعادة المبادأة[8].

لعل من المهم هنا بيان أن هناك أعمالًا منظمة أخذت مسارها بالتـــوازي بهدف إحداث نقلـــة نوعية في التخطيط الاســـتراتيجي العراقي. أشـــار الفريق الخزرجـــي في مذكراته مثـــلًا إلى مفصل مهم في هـــذه المرحلة، يتمثل بمجموعة الأفـــكار التي رأى بحق أنها ســـتكون كفيلة بإحداث تحول نوعي فـــي المواجهة، وتُفضي بالنتيجة إلى إنهـــاء الحرب لمصلحة العراق. هـــذه الأفكار كتبها عندما كان قائدًا للفرقة الســـابعة وكان يفكر بهـــا بصوت عالٍ في نقاشاته مع هيئة ركنه.

تشـــجع وبادر بالكتابة إلـــى القائد العام شـــخصيًا عنها، فنوّه الرئيس القائد العـــام بها، وحث الفريق الخزرجـــي على الكتابة له باســـتمرار، لكنه لم يتخذ أي إجراءٍ محدد بصددهـــا، إلى أن ذَكّرَهُ الفريق الخزرجي بها في أول مناســـبة. اســـتقبل القائد العام رئيس

(8) Pelletiere, Johnson and Rosenberger, pp. 38-40.

أركانه الجديد (الفريــق الخزرجي) فــي 17 تموز/يوليو 1987، وأقرّها فبدأت سلســلة متوازية ومتوالية لإعداد القوات المســلحة العراقيــة للحرب بفكر جديــد، يحمل التعرض بيــن طياته. وبُذل الكثير من الجهد لرفع كفاية الوحدات تدريبيًا، ولم يُســمح للعدو أبدًا بالتدخل في ترتيبات إعداد القوات في خروقاته وفاعلياته كلها حتــى أخطرها، عندما احتل حلبجة وسلســلة شــميران ومحاولته السيطرة على سد دربندخان في سعي إلى إغراق بغداد.

من أهم الخطــوات المتخذة في هذا المجــال وعلى صعيد التخطيط الاستراتيجي ضرورة الحصول على موقف جوي ملائم طوال فترة المواجهة، ومنــع القوات الجوية الإيرانية المنهكة فعلًا من استعادة أنفاسها والتدخّل في مجريات المعارك. نجحت القوة الجوية العراقية هنا في تأمين «ســيادة جوية» على أرض المعركة ونفّذت سلســلة من عمليات الإســناد الجوي القريب والإســناد الجوي التعرضــي والتجريد (Interdiction) على ســاحة العمليات. كما نجحــت في تأمين موقف جــوي ملائم على ســماء الخليج العربي وصولًا إلى مشــارف مضيــق هرمــز، إذ ضربت ناقلات إيرانية ومنشــآت نفطيــة وبحرية في جزر لافان (Lavan) وســيري وغيرها، من دون تدخل ولو بســيط من القوات الجوية الإيرانية. لهــذا الغرض تم تســليح ســرب من طائــرات الميــراج (EQ-5) بالصواريخ البحرية (Exocet AM-39) لتُســتخدم في هذه الواجبات. ولتلافي إشــكالية عدم مســاعدة المدى، تدربت القوات الجوية العراقية على عمليات الإرضاع الجــوي التي نفّذتها بكفاية عالية،

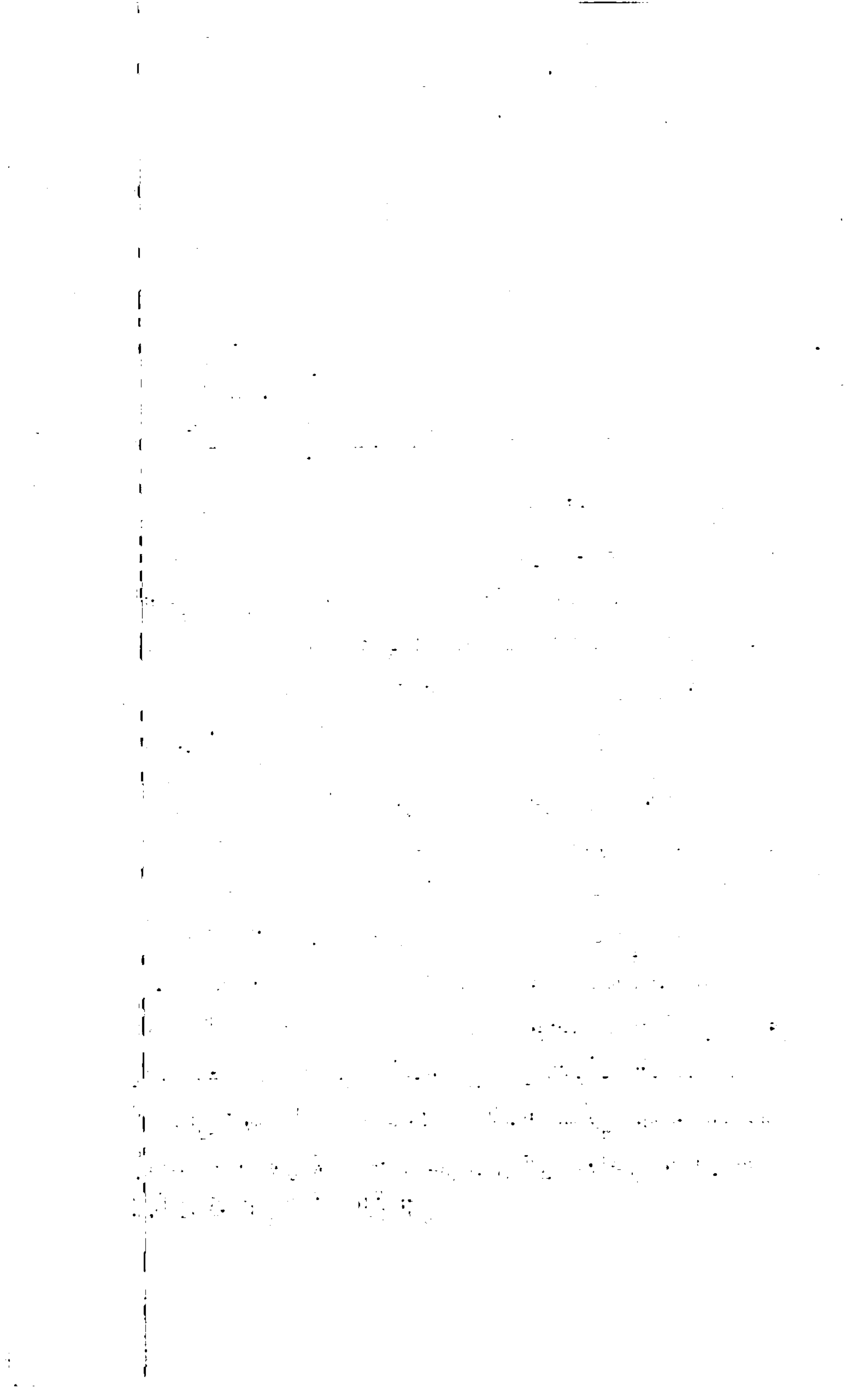
الأمر الذي نقلها إلى مستوى متقدّم بين القوى الجوية العاملة في المنطقة. ومن التدابير الممتازة التي قامت بها القوة الجوية العراقية في هذا المجال تطوير قدرتها الاستطلاعية والتصويرية لساحة العمليات، بعدما وُظّفت طائرات الاستطلاع ميغ 25 أحسن توظيف لاستطلاع وتصوير أرض المعركة، الأمر الذي عزز نجاحات الاستخبارات العسكرية في هذا الصدد. فضلًا عن ذلك نجح التصنيع العسكري العراقي بالتعاون مع هيئة البحث العلمي للقوات المسلحة العراقية والقوات الجوية العراقية في تصنيع نموذجٍ أوليٍّ ثم نهائيٍّ لطائرة استطلاع للإنذار المبكر عراقية (EWACS)، بتركيب صحن الرادار الدائريّ على ظهر طائرة بوينغ 747، وهو إنجاز كبير في حقل الحركيات الجوية (Aerodynamics). وتم تصنيع طائرتين من هذا الطراز أخذتا تسمية «عدنان» و«عدنان 2»، إحياءً لاسم الراحل الفريق الأول الركن عدنان خير الله الذي قضى بحادث طائرة في عام 1989.

يعني هذا كله أن مدرسة الفكر العسكري العراقي الجديدة بدأت تؤتي أكلها. وهنا سيكون للفريق الخزرجي شأن مرموق في بعث هذه المدرسة فور تسنّمه منصب رئيس الأركان الذي يُعد الرئيس المهني الأعلى للقوات المسلحة والمستشار العسكري الأول للقائد العام للقوات المسلحة رئيس الجمهورية. وجرت وبشكل متزامن خطوات حثيثة لإعادة تدريب التشكيلات المقاتلة على العمليات التعرضية، وعبور الموانع المائية، والتعاون بين تشكيلات بمقياس كبير (فرقة فأعلى). وتم التدريب على التنقّل والمرونة في استخدام الطرق، وجرى تعظيم حجم ناقلات

الدبابات بالاســتفادة من ناقلات جهد الدولة الهندســي المركزي التي تُســتخدم لنقل المعدات الهندســية الثقيلة. كمــا وُجّه جهد الدولة الهندســي المركزي إلى إعداد ســاحة العمليــات وعمقها الإداري للمعارك المقبلــة. فتحت هذه الإجــراءات كلها المجال حثيثًا للمرحلة الخامسة والحاسمة من الحرب. ولاحظنا كيف ألقى الفريق الخزرجي ضوءًا على هذه الإنجازات.

الفصل الخامس

معارك التحرير الكبرى



- المرحلة الخامسة: استعادة المبادأة ومعارك التحرير وإنهاء الحرب

هذه هي المرحلة الحاسمة والنهائية في الحرب، المرحلة التي تقررت بها نهاية هذه الحرب الضروس التي استنزفت من دماء أبناء البلدين الكثير، من دون أن يكون للحكمة مجال في محاولة وضع حد لهذا الاستنزاف بسبب الأثر السلبي للتعصب والعناد الذي يتحمل البلدان مسؤوليته بشكل مشترك، لكن مسؤولية الجانب الإيراني هي الأكبر بالتأكيد.

بعد أن استفحل الخطر المحيق بالعراق جراء إصرار إيران على احتلال البصرة باعتبارها مفتاح الانتصار وإنهاء الحرب لمصلحتها، وبعد الاستنزاف الهائل الذي سببته معركة الفاو في عام 1986، اتّخذت القيادة العراقية قرارًا صائبًا في تولية منصب رئاسة أركان الجيش العراقي لشخصية تتصف بالصفات التي تقود الجيش إلى الانتصار. وجدت القيادة العراقية أن أفضل من يتمتع بهذه الصفات هو الفريق الخزرجي الذي كان آنذاك قائدًا للفيلق الأول في شمال القطر ومسؤولًا عن العمليات في الجبهة المتاخمة لإيران، اعتبارًا من نقطة دخول نهر ديالى إلى الأراضي العراقية حتى المثلث العراقي التركي الإيراني.

وجد الفريق الخزرجي في اختياره لهذا المنصب فرصة لإعادة طرح ما سبق وفكّر فيه، لإنهاء الوضع الراهن والخروج من دوامة الدفاع السلبي إلى عمل تعرضيّ يحرر الأراضي العراقية، ويُنهي الحرب لمصلحة العراق وبانتصار ناجز. من هنا اهتبل فرصة لقائه القائد العام للقوات المسلحة، وأعاد عليه أفكاره التي أرسلها إليه تحت عنوان «أفكار مقاتل في القادسية». فوجّهه القائد العام إلى العمل في ضوئها، وإلى المباشرة في إعداد الخطط اللازمة للتنفيذ، وإعداد وتدريب القوات على هذا الأساس.

توج الخزرجي فكره العسكري ومهارته القيادية في تخطيطه وقيادته عمليات التحرير الكبرى التي ختمت الحرب العراقية - الإيرانية. نجد هنا محطة مهمة يندر تصوّرها في تلك الأحوال، وتنم عن مدى الثقة التي كان الرئيس القائد العام للقوات المسلحة يوليها للفريق الخزرجي عندما قرر، بعد موقف قيادي معين، أن يخوّل كلًا من نائب القائد العام الراحل عدنان خير الله والفريق الخزرجي صلاحية القائد العام نفسه في ساحة العمليات التي تعني بالفعل إصدار الأوامر للحرس الجمهوري، ومسؤولية الحرس العملياتية الميدانية أمامه[1]. كان ذلك واحدًا من الدروس المستنبطة المهمة التي حققت النصر وهو التزام وحدة القيادة[2]. عرض الفريق

(1) انظر: Stephen C. Pelletiere, Douglas V. Johnson and Leif R. Rosenberger, *Iraqi Power and U.S. Security in the Middle East* (Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 1990), p. 38.

(2) ربما كانت قراءاته الأولى لتجارب الحرب العالمية الثانية في معارك شمال أفريقيا ومقارنته بين السلوك القيادي للجنرال رومل والجنرال مونتغمري، وتأثره الواضح بالشخصية القيادية الفذة للجنرال أروين رومل أحد القادة العسكريين الأفذاذ، هي البذرة =

الخزرجي في مذكراتــه صفحات هذه المرحلة مــن الحرب، وقد بلغت خمس صفحــات، وابتدأت بتحرير مثلــث الفاو الذي نجح العدو في احتلاله في عام 1986، بعملية اقترن فيها الفيلق الســابع بالحرس الجمهــوري والقوات البحرية العراقيــة في عملية مناورة تسترعي النظر، ألقى الخزرجي عليها الضوء.

كانت عمليــة «رمضان مبارك» (التي أشــار إلى خلفية إطلاق اســم رمضان مبارك عليهــا) عملية اتســمت بالتخطيــط الدقيق والمخادعة الاستراتيجية واسعة النطاق، التي لم توجَّه إلى الخصم الإيرانــي فحســب، بل إلى الــدول الكبــرى أيضًا وعلى رأســها الولايات المتحدة الأميركية التي بدأت الشــكوك في عدم حيدتها في هذه الحرب تتضح، بعد عملية سقوط الفاو بيد القوات الإيرانية (1986) كما أشرنا ســابقًا، وأوضحها الخزرجي في ذكرياته. أذكر أننا كنا في قاطع الســليمانية والفيلــق الأول يتهيــأ لعملية تحرير حلبجة حينما استدعي أعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة (نائب القائد العام/ وزير الدفاع الذي كان مع القيادة العامة في السليمانية، ورئيــس أركان الجيش ومعاونــه للعمليات ومدير الاســتخبارات العســكرية العامــة، وكنت معهم فــي الطائرة نفســها التي هبطت في المطار الدولــي، وتوجهوا هم إلى مــكان مجهول (اتضح من المذكرات أنه مســكن الرئيس)، وتوجهت إلى مقرّ الأركان العامة. بدأت عملية تحرير الفاو بعد 24 ســاعة من هذا اللقاء، وتحررت

= الأولى التي أنشــأت روح التعرض في الشخصية المهنية للفريق الخزرجيّ. للمقارنة بين النمطين القياديين أعلاه انظر: شــكري محمود نديم، حرب إفريقيا الشــمالية، 1940-1943، ط 5 (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1974).

الفاو بأقل من 36 ســاعة وبعملية منســقة ومنظمة حققت أهدافها ورفعت معنويات القوات العراقية كثيرًا[3].

تداعت بعدها أربــع عمليات أُطلق عليهــا «توكلنا على الله»، وجِّهــت أولاها إلى الشــلامجة، وهــي ذلك القطــاع من الأرض الحدودية العراقية التي تفصل بين شــط العرب وبحيرة الأســماك، ويقع فيها مخفر الشلامجة الحدودي العراقي - الإيراني، نفِّذت هذه العملية بوقت أبكر مما خُطِّط له بأربع وعشــرين ساعة، بعد تسرب توقيتها الأصلي إلى الإيرانيين من جانب الأميركيين عبر طرف ثالث كما يظن العراقيون. لم تتأثر لا الخطة ولا الأداء نتيجة هذا التقسيم، وتم إجهاض التعرض المقابل الإيراني وسيق آلاف الأسرى.

أســهب الخزرجي في وصف هــذه العمليــات الأربع بكل وضوح، ونظرًا إلى أنهــا العمليات التي أنهــت الحرب العراقية - الإيرانية عمليًّا في 8 آب/ أغسطس 1988، سنحاول بيان الدروس المســتفادة منها اســتنادًا إلى ما جاء فــي المذكرات التــي كتبها، والاســتئناس بما كتبه الآخــرون عنها. نحن نــرى أن حصيلة هذه المعارك تمثِّل موقفًا مشــرّفًا للعســكرية العربيــة، قاتلت فيه بكل إصرار وعــزم، وبتخطيط علمي مــدروس، درِّس عند أكبر وأقوى جيوش العالــم أي جيش الولايات المتحــدة الأميركية، وأصدرت المارينز (مشاة البحرية) كتابًا خاصًا عنه، كان أحد مراجعنا المهمة في إعداد تقديمنــا التحليلي هذا. لم يكن هذا ليحدث لولا الأهمية

---

(3) Pelletiere, Johnson and Rosenberger, pp. 38-46

البالغة لدراسة تجربة العسكرية العربية هذه التي استرعت الأنظار إليها جملة أسباب أهمها[4]:

- إنها تجربة لحرب طويلة شهدت مختلف التطورات المتوقعة في أرض المعارك، من تقدّم وهجوم ودفاع وانسحاب، كما شهدت مختلف عمليات المخادعة والاستخبارات.

- إن المدى الزمني لهذه الحرب فاق المدى الزمني للحرب العالمية الثانية، الأمر الذي يجعل من الممكن دراسة وسبر أغوار التداعيات التي خلّفتها على شعبي البلدين وجوارهما الإقليمي.

- صحيح أن هذه الحرب تورّط فيها البلدان المتحاربان، إلا أن بلدانًا أخرى في المنطقة اكتوت بنارها، ومنها أقطار الخليج العربي وشملت تداعياتها العلاقات العربية - العربية، بعدما شهدت الحرب اصطفاف بعض العرب إلى جانب إيران، وتأتي سورية في مقدّمهم، كما هي الحال مع ليبيا وبلدان أخرى.

- شهدت المرحلة الختامية من الحرب انتقال الصراع إلى مياه الخليج العربي، عندما فرض العراقيون الفائقية الجوية واستخدموا

---

(4) من التحليلات المعمقة والممتازة التي أجريت في الولايات المتحدة الأميركية التحليل الذي قام به أنتوني كوردسمان وأبراهام واجنر في سياق كتاب جامع لهما أصدره مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية في واشنطن (CSIS)، تناول الجزء الثاني منه الحرب العراقية - الإيرانية، وكان هذا الكتاب أحد مصادرنا لهذه الدراسة. انظر: Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*.

الصواريخ (جو - بحر) في تدمير ناقلات النفط والمنشآت البحرية الإيرانية، كما شـــهدت بداية تورط الولايـــات المتحدة في الحرب البحرية بعد تعرّض سفنها الحربية للنيران الإيرانية.

- كانت العمليات الختامية للحرب البرية تمثّل مناورات على المستوى العملياتي/ الاســـتراتيجي على مســـتوى متميّز من الدقة والمهارة في الأداء، الأمـــر الذي جعل من دراســـتها وتحليلها بل وتدريسها أمرًا مطلوبًا.

- تزايد العدوانيـــة الإيرانية على الرغم مـــن النتائج الكارثية كلها التي أحاقت بها، الأمر الذي جعل دراســـة الشخصية الإيرانية ودورها في القتـــال أمرًا مهمًّـــا، وهو ما حدث فعـــلًا، إذ توجهت جامعات أميركية إلى تحليل دور المســـجد الشيعي في الثورة ودور رجال الدين، وقدم الطالب الإيراني ســـيروس وكيل الزاد أطروحته هذه لجامعـــة ولاية كاليفورنيا. وتولت جامعة وسكنســـن دراســـة المرتكزات الاجتماعية للثورة الإيرانية في أطروحة بعنوان «تحليل اجتماعي للثـــورة الإيرانية» قدّمهـــا ونال عنها الدكتـــوراه الطالب الإيراني منصور معدل[5].

- في هذه الحرب اســـتخدمت حزمة واســـعة من الأســـلحة غربية وشـــرقية، قاتل بها جنود الطرفين المتحاربيـــن، الأمر الذي

---

(5) ترجمنا لبيت الحكمة ببغداد أطروحة دكتوراه لطالب إيراني اســـمه سيروس وكيل الزاد قدمها تحت عنوان «دور المســـجد الشـــيعي في الثـــورة الإيرانية». وترجمنا أطروحـــة دكتوراه أخرى لطالـــب إيراني آخر هـــو منصور معدل تحت عنـــوان «تحليل اجتماعي للثورة الإيرانية». وأصدر بيت الحكمة الكتابين للتوزيع المحدود.

شــكّل فرصة ممتازة لدراســة وتحليل أداء هذه الأسلحة وقدراتها وإمكاناتها. وتولّى البلــدان المتحاربان تكييف وتعديل بعضها ومد وزيادة مدياتها لتلائم الاستخدامات المطلوبة في ساحة العمليات.

– لعل من إنجازات هذه الحرب عمليات المناورة الواســعة التي نفّذتها القوات المســلحة العراقية بتحقيق اقتران قوات كبيرة (فيلق فأكثر) تقاتل بأنواع مختلفة من الأســلحة مختلفة المناشئ والخصائــص، لتحقيق غاية واحدة هي النصــر. ونجح العراقيون بشــكل جيد في قَرْنِ أســلحة ذات منشأ ســوفياتي بأسلحة ذات منشأ غربي (فرنسا والبرازيل وتشيلي والأرجنتين وجنوب أفريقيا وغيرها)، فضلًا عن الأسلحة الصينية التي كانت تُصنع على النمط الســوفياتي. إن واحدًا من التحديات الدقيقة مثــلًا هو كيفية إدارة نيران المدفعية المختلفة المنشــأ والمختلفة في جداول رميها في خطة نارية واحدة[6]. وهي معضلة تمكّنــت المدفعية العراقية من أن تجد لها حلولًا ناجعــةً، وكان لنجاح المدفعية في تركيز نيرانها على أهداف حَسُنَ انتخابها، بناءً على معلومات استخباريةٍ دقيقة، شأن مهمٌّ في صنع نهايات ناجحة لمواجهات قتالية عديدة. وأشار المؤلف إلى محطات مهمة كان للمدفعية فيها شــأن مهمٌّ في صنع النصر مثــل معارك جوارتة ومــاوت. فضلًا عن معــارك التحرير الخمس النهائية حيث كان تنســيق نيران المدفعية والقوة الجوية، وحركة القطعات الهاجمة متميّزًا.

(6) انظر مثلاً الشكل (3.2) القســم الأول، (3.2) القسم الثاني من القسم الثاني من كتاب كوردســمان وواجنر الذي يبيّن تنوّع مصادر التســليح للطرفيــن في الأعوام 1980–1987: Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War.*

الفصل السادس

تحليل أدوار القوات والصنوف (الأسلحة)

أشـــار الفريق الخزرجي في مذكراته إلـــى دور القوات (البرية والجوية والبحرية العراقية) في الحـــرب العراقية - الإيرانية طوال مراحلهـــا أينما وجد ذلك مناســـبًا مـــن زاوية تعاطيـــه مع الحدث في زمنه. ولضرورة إلقاء الضوء بشـــيء مـــن التحليل العلمي على دور هذه القوات وأســـلحتها (صنوفها) في هـــذه الحرب نجد من المناســـب المرور عليها وتلمّس المحطـــات والانعطافات المهمة التي واجهتها، وما اتّخذ في الســـياق الزمني للحرب من إجراءات لتعديل أو تحسين أو تطوير الأداء أو المعدات أو كليهما.

أولًا: الحرب الجوية

تنقسم الحرب الجوية إلى أربع صفحات هي على التوالي:

- **الصفحـــة الأولى:** الضربـــة الإجهاضية الأولـــى وعمليات التجريد العميق.

- **الصفحة الثانية:** عمليات الإسناد الجوي التعرضي والإسناد الأرضي.

- **الصفحة الثالثة:** عمليات القتال الجـــوي البحري والتغلغل العميق.

- الصفحة الختامية: إسناد عمليات التحرير الكبرى الخمس.

باديء ذي بدء، كان الموقف الجوي في مفتتح الحرب العراقية - الإيرانية يميــل نظريًا على الأقل إلى جانب إيــران، إذ كان لدى القوات الجوية الإيرانية 475 طائرة قتال، منها 209 طائرات فانتوم (F-4)، و80 طائرة Tomcat (F-14)، فضلًا عن طائرات (F-5). في حين امتلك العراق في ذلك الوقت 325 طائرة أغلبها ســوفياتية المنشأ، ولم يكن لديه من الطائرات ذات المنشأ الغربي إلا عددًا من طائرات الهوكر هنتر العلامة 6 البريطانية. لكن المعلومات المرصودة لدى الاســتخبارات العراقية بيّنت أن الوضع الفني ودرجة الاســتعداد القتالي للقوة الجوية الإيرانية كانا متدنيين بســبب إجراءات التطهير التي تعرضت لها القوات المسلحة الشاهنشاهية، ومن ضمنها القوة الجوية. وكان هذا التحليل صحيحًا إلى حد كبير[1]. ولو أنه لم يمنع القوة الجويــة الإيرانية من أن تردّ وبمقياس واســع في اليوم الثاني من الضربة الجوية العراقية الأولى، الأمر الــذي يعني تمكّن القوة الجوية من تجاوز ما نتج من الضربة العراقية من خســائر، حين تم إصلاح المدارج وأعيد تشغيل القواعد الجوية عملياتيًا بحيث أتيح الرد الجوي المقابل في اليوم الثانــي بعد الضربة، أي يوم 23 ومع الفجر الأول[2].

---

(1) G. Hossein Razi, «An Alternative Paradigm to State Rationality in Foreign Policy: The Iran-Iraq War,» *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 4 (December 1988), p. 711.

(2) Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*, Part 8, p. 8.

بشكل وآخر كانت هذه الحرب صراعًا بين تقانتين من منشأين مختلفين، أحدهما شـرقي سـوفياتي يعتمد أساسًا على طائرات سلسـلة ميغ (21,23,25,29) في واجبات الاستطلاع والقتال الجوي، وطائـرات سـوخوي (24 و25) فـي واجبات الإسـناد الجوي التعرضيّ والقتال الجوي الأرضي، وهذه الطائرات تُعد من الناحية التعبوية مكافئة لطائرات الهجوم الأرضي الأميركية (A-9 and A-10). وأضاف العراق بنجاح طائرات (Mirage F-1) إلى ترسـانته الحربية، وتحوّلت في المراحل النهائية من الحرب لتكون المقاتلة الرئيسـة في قواته، وامتلك منها خمسة أسراب، خصّص منها جهدًا للطيران البحري، عمل وبجد في تأمين الفائقية الجوية للعراق مقابل إيران، وتمكّن، من خلال اسـتخدام تقانة الإرضاع الجوي، من الوصول إلى أهداف اسـتراتيجية إيرانية تقع على مدخـل الخليج الجنوبي الغربي قرب مضيق هرمز. فضلًا عن هذا الجهد ساهمت القاصفات الاسـتراتيجية العراقية من طرازي بادجر (Tu-16) و(Tu-22) بلايندر، فضلًا عن القاصفات الخفيفة (IL-28).

ساهمت الاسـتخدامات الإيرانية المسـرفة لجهدها الجوي، إبان التعرض الإيراني المقابل واسـع النطاق فـي عام 1982، في استنزاف ذلك الجهد، وعمل نقص المعرفة المهنية وتأكّل المتيسر منها نتيجة الخسـائر والهروب واسـتلام العـراق طائراته الجديدة من طراز (Mirage F-1)، فـي حصول العراق علـى الفائقية الجوية على أرض المعركة واحتفاظه بها حتـى نهاية الحرب[3]. ولعل من

(3) المصدر نفسه، ص 27.

المفيد بيان أن العراق بيّن فــي بياناته أنه نفّذ 400000 طلعة جوية على الأراضي والمياه الإيرانية، وفي هذا دليــل على تنامي القدرة الجوية العراقية، وبشــكل متصاعد فور صد العراق الهجوم المقابل واسع النطاق الذي شــنّته إيران في عام 1982[4]، كما أن الحرب اختُتمــت ولم يتبق لدى إيران إلا 80 طائــرة قتال، في حين تنامت القوة الجويــة العراقية لتصل إلى نحو 500 طائرة قتال، ومن خلال إضافة تقنية نوعية جديدة مثّلتها طائرات الميراج (F-1)[5].

1 - الدروس المستفادة من الحرب الجوية

كانت الحرب الجوية العراقية - الإيرانية مجالًا ذا مدىً زمني كافٍ للخروج بجملة اســتنتاجات تشــير إلى دروس مستفادة من الاســتخدام القتالي للقوات الجوية في هذه الحرب. وقبل أن نورد هذه الدروس علي شــكل نقاط، نرى أن الجانبين قاتلا ما بوسعهما بهدف حصول كلٍ منهما على السيادة الجوية على ساحة المعركة، على الرغم من أن مفهوم السيادة الجوية لم يعد قيد الاستخدام في أدبيات القوات الجوية في ضوء تطوُّر وتناظر وسائل القتال للدول المختلفة وصعوبة إخراج القوة الجوية المعادية من أجواء المعركة، لكن الذي جرى في القتال الجوي بين الطرفين أن سعي كلٍّ منهما إلى إخراج الطرف المعادي من أجواء المعارك تسبب في استنزاف واسع النطاق لموارد الطرفين. وفي ضوء مرونة الدبلوماسية العراقية

(4) *Jane's Defense Weekly* (21 January 1989), p. 81.

(5) Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War.*

والمصالح المترسخة بين العراق وفرنسا، تمكّن العراق من تعويض النقص البارز في التقنية والاستنزاف اللذين تعرّض لهما سلاحه الجوي، بتأجير طائرات السوبر إتندارد البحرية أولًا، ثم تعويضها بالطائرة ميراج (F-1) بأنواعها. وساعد نوعها البحري (F-1 EQ5) في فرض موقف جوي ملائم عراقي على الخليج العربي، الأمر الذي أتاح له استخدام هذه الطائرة المعقدة بكفاية ملحوظة.

وفي ما يلي أهم الدروس التي نرى أن القتال الجوي بين الخصمين أتاحها كدروس للمستقبل:

- للقوات الجوية تأثير كبير في الحرب، لكن تأثيرها على الدوام لم يكن حاسمًا في رسم صورة نهائية للحرب. الجهد الجوي عنصر معاون للسلاح الوحيد القادر على رسم نتيجة المعركة بتواجده على الأرض فعلًا.

- كذلك، من الصحيح نجاح عمليات التجريد الجوي في إلحاق أذى كبير بالوضع السياسي الاجتماعي الاقتصادي في بلد الهدف، إلا أنه من الصحيح أيضًا أن نتائج هذا التجريد ستصب في تفكيك قدرة الخصم على التحمُّل والمطاولة فحسب، حيث قُصف العراق بعنف في الحروب الثلاث التي عاشها في العقدين المنصرمين، إلا أنه لم يُجبر على اتّخاذ موقف الخاسر، إلا عندما وطئت أقدام الغزاة أرضه. في حين لم تنجح عمليات القصف المركزة بين الحربين (1991 - 2003) في أن تثني القيادة العراقية عن موقفها.

- يبـدو أن البلدين - إيران على وجـه التحديد - لم يتمكّنا من الاسـتفادة من التقانـة العالية التـي يتيحها التسـليح الغربي المتوافـر لديهما، فإمكانات طائرة التفوّق تومكات (F-14) ليسـت قليلـة، وتسـليحها الرئيس المتيسّـر لـدى إيران وهـو صاروخ فونيكـس (Phoenix)، صـاروخ ذو خصائـص متقدمـة، وأجهزة الحرب الإلكترونيـة المحمولة عليه متفوقة، لكن لم ينفع لسـوء الخزن وانعدام الصيانة بسـبب مغادرة أفـراد الصيانة الأميركيين بعد الثورة. وكانت لدى العراقيين مشكلات في التعرف الراداري والتوجيـه في المراحل الأولى من الحـرب، وتمثّل عملية ضرب المدمِّرة الأميركية سـتارك من جانب القوات العراقية مثلًا عليها، فلم يكن بين القـوة الجوية العراقيـة بمهماتهـا البحرية وبحرية الولايات المتحدة أجهزة تميِّز العـدو من الصديق (FFI). وتلافت القوة الجوية العراقية نقـاط الضعف في التوجيه والتمييز ومعالجة الأهداف على البحر، وهي مهمات لم يسـبق لهـا التدريب عليها والقيام بها.

2 - طيران الجيش

في بداية الحـرب لم يكن سـلاح طيران الجيـش قد تبلور بشـكل واضح، على الرغم من وجود معين من الطائرات السمتيّة (الهليكوبتر)، كان أغلبها من الطراز الروسـي (السـوفياتي) ,Mi-6) (Mi-8 التي كانت تُستخدم لأغراض النقل، وكانت تشوبها تحديدات فنية معينة عند اسـتخدامها، خصوصًا في أحـوال درجات الحرارة المرتفعة. لكن مع اندلاع الحرب سـعت القوات المسلحة العراقية

إلى الحصول على ترسـانة من الطائرات السـمتيّة لتعزيز أسطول طيران الجيش.

لعل من أهـم هذه الطائرات طائرة السـوبرفريلون الفرنسـية الصنع المسـلحة بحاملتين لصواريخ أكسوسـيت (AM-39) جو - بحر، وتشـكّل سـرب الطيران البحري من هذه الطائرات، وأبلت بلاء حسنًا في المراحل الختامية من الحرب بعد أن عانت معها هيئة الركن البحرية صعوبة التمييز والتعرف إلى طبيعة الأهداف الإيرانية الظاهرة على الرادار في مراحل الحرب الأولى.

من أهم ما تيسر للقوات المسلحة العراقية من طائرات سمتيّة (هليكوبتر) مقاتلة، طائرتا (Mi-24) و(Mi-25) السوفياتيتين المسلحتين جيدًا للقتال الجوي الأرضي من ناحية كونهما مسلحتين بصواريخ (UB-32)، لضرب الدروع والتحصينات، ورشاشـة مثبتة على مقدمة الطائرة لقتال الأفـراد. وكذلك طائرات غزال (Gazelle) الفرنسـية المسلحة بصاروخ هوت (HOT) وطائرات (MBB Bo 105) المسلحة بصاروخ هوت أيضًا.

عملت طائـرات طيران الجيش في واجبات الإسـناد القريب للقطعات البريـة كمدفعية متنقلـة مرنة وسـريعة الحركة ومؤثرة. وامتلكت إيران أيضًا طائرة الغزال وبالتسـليح نفسـه في المراحل الأولى من الحرب.

ثانيًا: العمليات البحرية

يتشارك العراق وإيران في البحر الإقليمي من ناحية ملكيتهما المشـتركة مداخل شـط العرب على وفق اتفاقية الحدود الموقّعة

في أيلول/ سـبتمبر 1975 المعروفة باتفاقية الجزائر، وعلى الرغم من محدودية البحر الإقليمي العراقي، فإن وجود منشـآت التصدير النفطية العراقية العميقة (Offshore) في ميناءي البكر وخور العمية وضع مهمة شـاقة على عاتق البحرية العراقية محدودة التسـليح، بسـبب محدودية البحر الإقليمي، لذلك نجد أن التسليح البحري العراقي لم يكن إلا تسليحًا ساحليًا يتولى مهمات الدفاع الساحلي من جهة البحر والمرتكـز على 12 زورق صواريخ من طراز كومار السوفياتي، المسمى بالمشروع 205 والمسلح بأربع قواعد إطلاق لصواريخ سـطح - سـطح البحرية من طـراز (P-15) ذات المدى نحـو 100 كلم. وكان لـدى العراق عـدد مـن زوارق الطوربيد رباعية القواعد من طراز شيرشـين السوفياتية، وثلاث سفن مقاومة الغواصـات، وكاسـحتا ألغام سـاحليتان سـوفياتيتان، وعدد من كاسحات الألغام الداخلية اليوغوسلافية المنشأ. وامتلكت البحرية العراقية ثلاث سفن إنزال وفرقاطة تدريبية.

لم تكـن هذه القطع البحرية لتشـكل تحديًـا حقيقيًا للبحرية الإيرانية، عدا ضربات عديـدة لزوارق الصواريـخ، وتعرُّض هذه الزوارق لضربات إيرانية من زوارق صواريخ إيرانية كانت مسـلحة بصاروخ هاربون الأميركي، ومن الطائرات الإيرانية.

أدركت القوات البحرية العراقية نقاط ضعفها البيِّنة في العمل القتالي، وعدم قدرتها بتسـليحها الراهن علـى القيام بتنفيذ المهمة الموكلـة إليها، فعملـت هيئة الركـن البحرية العراقية وبإشـراف وتوجيه قائد القوة البحرية والدفاع السـاحلي اللواء البحري عبدو

الديري الذي يُعد المؤسس الفعلي للقوة البحرية، على إعداد دراسة تحليلية مفصّلة لمسرح العمليات البحرية العراقي، وتوصلت في ضوء هذا التحليل إلى الخلاصات التالية التي تحوّلت توصياتٍ أقرّتها القيادة، وباشرت البحرية بالتحول من بحرية ساحلية إلى بحرية أعالي بحار حقيقية.

- إن مسرح عمليات الخليج العربي هو مسرح عمليات بحرية شبه مغلق، لا يلبي العمل البحري فيه تحقيق المصالح القومية العراقية في البحر ولا الدفاع عنها.

- إن تحقيق المصالح البحرية العراقية يقتضي التواجد بفعل واضح قادر على الردع في منطقة تقع خارج خليج عمان والخليج العربي.

- لذلك سيقسم مسرح العمليات البحري العراقي مسرحين يضمّ أولهما الخليج العربي لغاية مضيق هرمز (داخل)، والآخر مسرح عمليات البحر العربي الذي يبدأ من خارج مضيق هرمز في خليج عمان ويستمر إلى البحر العربي (أعالي البحار).

- يتطلب الأمر إعادة النظر في تنظيم وتسليح القوة البحرية العراقية بشكلٍ جذريٍّ وبتسليحٍ حديثٍ، وصرف النظر عن انتظار أن يجهّزنا الاتّحاد السوفياتي بتسليحٍ بحري حديثٍ، لأن عروضه التسليحية كلها لم تكن لتلبي الطموح الذي يتطلّبه التنظيم الجديد.

- من هنا تم اتخاذ جملة إجراءات، منها وضع متطلبات التسليح والتفاوض عليه مع الفرنسيين أولًا، ثم مع الإيطاليين

الذين تـم التوصل معهم إلى اتفاقية تسـليح بحري حديث لتجهيز أسـطولين، أحدهما سيتولى المنطقة (أ) (مسـرح عمليات الخليج العربي) وسـيعتمد على تجهيز البحرية بسـفن حراسـة عددها 6 مسـلحة بصواريخ أوتومات، مـع طيران بحري أساسـه طائرات أوغوستا السمتيّة المسـلحة هي الأخرى بصواريخ أوتومات. ونواة لأسـطول أعالي البحار أساسـه التجهيز بفرقاطات من طراز (لوبو LOPO) المجهزة بالصواريخ نفسـها. ولكل من الفرقاطات وسفن الحراسة القدرة على حمل وتشغيل طائرة سمتيّة بحرية مسلحة على ظهرها. وتم التعاقد بالعقد الضخم نفسـه الذي كلّف في حينه نحو مليار ونصف المليار دولار بأسـعار عام 1979 على سفن الإسناد الفني والإداري كلها. وبوشر بالبناء، وإرسال الطواقم لمواكبة البناء والإشراف عليه والتدريب في جهد متميّز لم يُكتب له النجاح بسبب انـدلاع هذه الحرب وامتناع إيطاليا عن تسـليم الأسـطول. كانت نتيجة الحرب ستختلف لو كان هذا التسـليح متيسرًا للعراق. وهنا ومن باب إسـناد الفضل إلى أهله، لا بدّ من بيان أن الأب الروحي لبرنامج التحديث البحـري الذي كان مدرِّسًـا وموجِّهًا لجيلنا من الضباط البحريين الشـباب، والذي، كما ذكرنا، يُعد بحقّ المؤسس الحقيقي للقوات البحرية العراقية، كان اللواء البحري عبدو الديري الذي مثَّل توأمةً حقيقية للبحرية العراقية والبحرية العربية السـورية التي كان رئيس أركانهـا في مرحلة معينة. كمـا أن من المهم بيان الدور البنّاء الذي قام به الأسـاتذة البحريون المصريون الذين قاموا أولًا في منتصف الستينيات بإعداد تقدير موقف مهم لتطوير البحرية العراقية، وهو ما طوّره اللـواء الديري في ما بعد، ثم تولت البحرية

المصرية إعـــداد الكادر الضباطي الشـــاب الذي تحـــوّل إلى قيادة البحرية وقطعاتها في فترة الحرب العراقية - الإيرانية.

- في المجال نفســه تم التعاقد مع فرنســا لتأميـــن قوة جوية بحرية لتأميـــن موقف جوي بحـــري ملائم على الخليـــج العربي. نجح العراق في هـــذا المجال بحصوله على طائـــرات الميراج (F-1) وطائرات الســـوبرفريلون البحرية المسلحة بصواريخ جو - بحر أكسوسيت (AM-39).

- ومن ناحية أخرى شُكلت عقدة قيادية لجهد الدفاع الساحلي الذي استند إلى لواء أو لواءي دفاع ساحلي وكتائب مدفعية للدفاع الســـاحلي موجّهة بالرادار، وصواريخ دفاع ساحلي من طراز سلك وورم (HY-2 Silk Worm) الصينية.

نجحت البحريـــة العراقية فـــي أن تثبت وجودها طـــوال فترة الصراع على الرغم من محدودية حجمها وقدراتها وإمكاناتها، لكن الدور الأكبر الذي نفّذته وبتحدٍ كبيرٍ هـــو نجاحها في الإنزال بلواء بحري خلف خطوط العدو على ساحل خور عبد الله ضمن عمليات «رمضان مبارك». كان دور البحرية علـــى صغر حجمها ومحدودية تســـليحها، دورًا متميـــزًا. وإن كانـــت الحرب العراقيـــة - الإيرانية الســـبب الأول الذي كبح المشروع التطويري البحري العراقي، على الرغم من اســـتمرار التواجد الكثيف لأفراد وفنيـــي البحرية العراقية في لاســـبيزيا بإيطاليا، لمتابعة تنفيذ المشـــروع التطويري البحري، فإن مماطلة الجهات الإيطالية في ســـعي ممنهج إلى منع العراق من الحصول على ســـفنه المقاتلة التي تعاقد عليها، كانت السبب الثاني

في إعاقة المشروع. هكذا مات المشروع التطويري البحري العراقي موتًا سريريًا بعد حوادث الكويت، إذ قُطعت إقامة وتدريب البعثة الفنية الإشرافية والتدريبية العراقية في إيطاليا وأُعيد أفرادها إلى العراق. ولا نعلم ما الذي جرى بالمبلغ الذي دفعه العراق من العقد والبالغ نحو 1.4 مليار دولار أميركي بأسعار عام 1979.

ما يسترعي الانتباه أن المحتل جهّز ما تبقى من البحرية العراقية بزوارق خفر سواحل خفيفة، بعد أن استحوذت الكويت على القاعدة البحرية العراقية الواقعة على رأس الخليج العربي، التي تحمل اسمه، وتم التضييق على الفسحة المحدودة من البحر الإقليمي المتبقية للعراق بعد تعديل الحدود مع الكويت من جانب مجلس الأمن.

ثالثًا: حرب الصواريخ

دخلت الصواريخ البالستية الصراع باعتبارها أحد العوامل التي حاول الطرفان من خلالها إحداث تغيير استراتيجي في مجرى العمليات، ووسيلة للوصول إلى النتيجة النهائية التي سعيا إليها في وضع نهاية للحرب تلبي أهداف وطموحات كلٍّ منهما.

قبل الدخول في تفاصيل هذا الاستخدام نرى من الضروري التعرف إلى هذه الصواريخ ومصادرها. كانت الصواريخ ذات المنشأ السوفياتي من طرازي فروغ (FROG) وسكود هما السلاحان اللذان استُخدما بنطاق واسع في هذه الحرب. ولعل العراق بدأ باستخدام صاروخ فروغ في الجبهة لضرب التحشدات المعادية وبالأخص

في جبهة ديزفول والخفاجية - البسـيتين (الفيلـق الرابع). ويبلغ مدى صاروخ (9K52 Luna) المعروف لدى الناتو باسم (Frog-7) نحو 60 -70 كلم، ويزن رأسه الحربي نحو 450 - 550 كلغم. يتميز هذا الصاروخ بعدم دقة إصابة الهدف، استعمله العراق بكثافة حيال الأهداف العسـكرية في العام الأول من الحرب، إلا أنه اضطرّ إلى تحويل اسـتخدامه ضد المدن عندما بدأت إيران هذه الحرب ضد العراق. وكدليل على ذلك أصاب هذا الصاروخ ضاحية إندمشـك الصغيرة نسـبيًّا، في حين على ما يبدو أن العراقيين استهدفوا مدينة ديزفول المجاورة والأكبر والأكثر أهمية[6].

على الرغم من محدودية عدد صواريخ سـكود (R-17 Scud-B) التي كانـت تتوافر للقوات المسـلحة العراقية فـي بداية الحرب، إذ لم يكن لديها إلا تسـع قاذفات سـكود منظّمـة بكتيبة صواريخ لم تكن جاهزة للاسـتخدام القتالي إلا في تشـرين الأول/ أكتوبر 1982، بدأ اسـتخدام أول صاروخ في السابع والعشرين من الشهر المذكور. يُعد هذا الصاروخ من الصواريخ التي عوّل عليها الاتحاد السـوفياتي السـابق في فترة اسـتعار الحرب الباردة، وكان أدخله إلى الخدمة في عـام 1967 في الميدان الأوروبي، تحت مسـمى (R-17E, R-300) وتُبيّن التسـمية الأخيرة مـداه أي نحو 300 كلم. والصاروخ هو صاروخ بالسـتيّ يعتمد في توجيهه نحو هدفه على ثلاثة جايروسـكوبات، تتولى تحديد زاويـة الارتفاع والانقضاض ومنحنى الطيران والمدى، كما يحوي معدات توجيه داخلية تعتمد

(6) Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War*, pp. xiii-36.

النفث النافوريّ لقيادة الصاروخ في أثنـاء مرحلة الطيران، من هنا فإن هذا الصاروخ أكثر تطـورًا وتعقيدًا من صـاروخ فروغ (لونا) الذي يُعتبر بدائيًا قياسًـا عليه. يُسـجَّل للعراق أنه أطلق سلسلة من هذه الصواريخ يبلـغ عددها الإجمالي 361 صاروخًا، شـهد منها عام 1988 وهو عام الحسـم النهائـي 193 إطلاقًا. هدف العراق من اسـتخدامه هذه الصواريخ التي بدأ الجانبان اسـتخدامها ضد مدنيي الطرف الآخر، إلى تدميـر الروح المعنوية للطرف المعادي. لهذا كانـت أهداف العراق الأولية المـدن الإيرانية التي تقع خلف خط القتال، والمُسـتخدمة كمناطق تحشـد وانطـلاق للمتطوِّعين المدنيين (الباسـيج) بقيادة رجال دين صغار، وكان الجميع وقودًا لهذه الحرب. لذلك كانت الأهواز وديزفول وخرم آباد وبروجورد أهدافًا دائمة للضربات العراقية. ومع ذلك استهدف العراقيون مدنًا في العمق الإيراني وصولًا إلى طهـران وقم المركز المقدّس ومقرّ الحوزة العلمية الشيعية في إيران، بعد أن نجحوا في تطوير صاروخ سكود ليصل إلى مدى 600 كلم، وسمّوه باسم أقدس أئمة الشيعة رمز التضحية وهو الإمام الحسين ليرمز إلى أنهم يضربون الإيرانيين برمزهم الثاوي في كربلاء في العراق، ثم ما لبث التصنيع العسكري أن أوصـل المـدى إلى 950 كلم وسـمّى هـذا الطـراز الجديد «العباس» الأخ غير الشقيق للإمام الحسـين الذي استشهد معه في معركة الطف - كربلاء، ويحمل هو الآخر معنىً رمزيًا لدى الشيعة في كل مكان.

يبدو أن عمليـة التطوير التي أعطت العراق يـدًا عُليا ومرونة في استهداف مراكز التجمّع السكانية الكبرى، أخذت بالحرب إلى

كل بيت في طهران بعد أن عاشت سبع سـنوات من سني الحرب الثمانية وهي بعيدة عن تأثيراتها المباشـرة، فـي حين كانت بغداد والبصرة وكركوك والموصل في قلب هذه المواجهة.

يبيّـن أحد المصـادر أن عـدد الصواريخ العراقيـة من طراز «الحسين» التي أطلقت على طهران كان نحو 160 صاروخًا برأس حربي يزن نحـو 190 كلغـم، أي إن طهران تعرضـت لأكثر من ثلاثين طنًا من المتفجرات خلال الأسـابيع السـبعة الحاسمة التي أنهت الحرب[7]. وعلى الرغم من أن هـذا الرقم يُعد متدنيًا مقارنة بما ألقي على منطقة هانوي - هايفونغ في الحرب الفيتنامية والذي بلغ 20000 طن، حـدث التأثير المطلوب، أي الإخلال بمعنويات الجماهير والتأثير سلبًا في الروح القتالية والعزيمة والرغبة في الفداء والاستشهاد التي امتاز بها المتطوّع الإيراني طوال فترة الحرب، فهو كان يتقدّم ماشـيًا يدوس على زميله الذي استشهد قبله جاعلًا منه منصة له ليقترب من كربـلاء[8]... وكحصيلة يمكن اعتبار هجمات العراق بصواريخ «الحسـين» في ربيع وصيـف 1988 جزءًا منفّذًا بحذاقة من خطط معارك التحرير الكبرى التي ختمت هذه الحرب. كان بعض المحلّلين والدارسين العسكريين قد بيّن في أوراق بحثيّة أن الستين يومًا التي استُخدمت فيها الصواريخ في حرب المدن ضد إيران حققت أكثر ممـا حققته القوات الجويـة العراقية في خمس

(7) Thomas McNaugher, «Ballistic Missiles and Chemical Weapons: The Legacy of the Iran-Iraq War,» *International Security*, vol. 15, no. 2 (Autumn 1990), p. 11.

(8) Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War*, pp. xiii, 35 and 37.

ســنوات من عمر الحرب، وجعلت المدنيين الإيرانيين يشكّون في قدرة نظام طهران على حمايتهم(9).

أما إيران فبدأت استخدام صواريخ ســكود متأخرة نسبيًا عن العراقيين، وإن كانت قد اســتخدمت ســكود - بي قبل استخدامها صواريــخ إيرانية الصنــع محــوّرة، أطلقت عليها اســم «عقاب». حصلت إيران على كميات من صواريخ (Scud-B) من سورية وليبيا البلدين العربيين اللذين شــذّا عن الإجماع العربــي المؤيد للعراق في موقفه مــن الحرب، ثم ما لبثت وحصلــت على 100 صاروخ (Scud-B) من كوريــا الشــمالية أوائل عــام 1988، وضربت منها سبعين صاروخًا مســتهدفة بمعظمها بغداد(10). وعلى الرغم من أن إيران كانــت تتميز على العراق كثيرًا في الموقــف الجيوبوليتيكي، فمدن العراق كلها كما سبق وذكرنا تقع على العموم ضمن مديات الصواريخ الإيرانية، وتقع البصرة ضمن مديات مدفعيته المتوســطة والثقيلة، لم تتمكّن من الاستفادة من عنصر الفائقية الجيوستراتيجية العالــي في حربها مــع العراق، ربمــا لغياب العقليــة ذات القدرة على التخطيط الاســتراتيجي القويم. ويمكن القــول وبكل ثقة إن اســتهداف إيران البصرة طوال فترة الحرب، واســتهدافها المدنيين في مدن الجنوب وجلهم من العرب الشيعة أتى بأثر عكسي، جعل من هؤلاء الذين كانت تسعى إلى كسب ودهم وأخذهم إلى جانبها،

---

(9) W. Jack Dees, *Iraqi Military Effectiveness in the War with Iran*, Middle East Special Studies, 1989-1991 supplement; 4. Special Studies Series (Newport, RI: Naval War College, [1990]), p. 17.

(10) McNaugher, p. 10.

يقفون منها موقف المتوجس الذي يتفهّم خطاب السلطة في العراق بأن المستهدف إيرانيًا من هذه الحرب، هو العراق دولةً وكيانًا، وليس مجرد شخص الرئيس ونظام الحكم. وهذا ما يفسر القتال الشرس الذي خاضه الجندي العراقي بعد تحول العراق للدفاع وانسحابه من الأراضي الإيرانية في عام 1982.

الدروس المستفادة من حرب الصواريخ

- شُنّت هذه الحرب من الطرفين لإحداث تحوّل جذري في قناعات المدنيين تجعل منهم إما مناصرين للطرف الآخر وإما محايدين. وفشلت إيران في هذا فشلًا ذريعًا، إذ لم تستطع تحويل قناعات العرب العراقيين الشيعة إلى جانبها، حتى في أضعف المراحل التي مرّ بها النظام والوضع العسكري العراقي في أعوام الانسحاب العراقي من الأراضي الإيرانية والتعرض الإيراني واسع النطاق على الجبهتين الجنوبية والوسطى في عام 1982، واحتلال الإيرانيين الفاو في عام 1986.

- على الرغم من أن التأثير التدميري لهذه الصواريخ محدود، فإن تأثيرًا نفسيًّا تذبذب بين مرعب في أوائل أيام الاستخدام، واعتيادي في مرحلة الاستنزاف، وما لبث أن تصاعد في أيام الحرب الأخيرة عندما وصلت الصواريخ إلى الداخل الإيراني، فصار تأثيرها مرعبًا.

- كان بإمكان إيران أن تؤثّر تأثيرًا أكبر في المدنيين العراقيين

لو أنها استفادت مما قدّمته لها الجغرافيا من قرب للتركيز السكاني العراقي من حدودها.

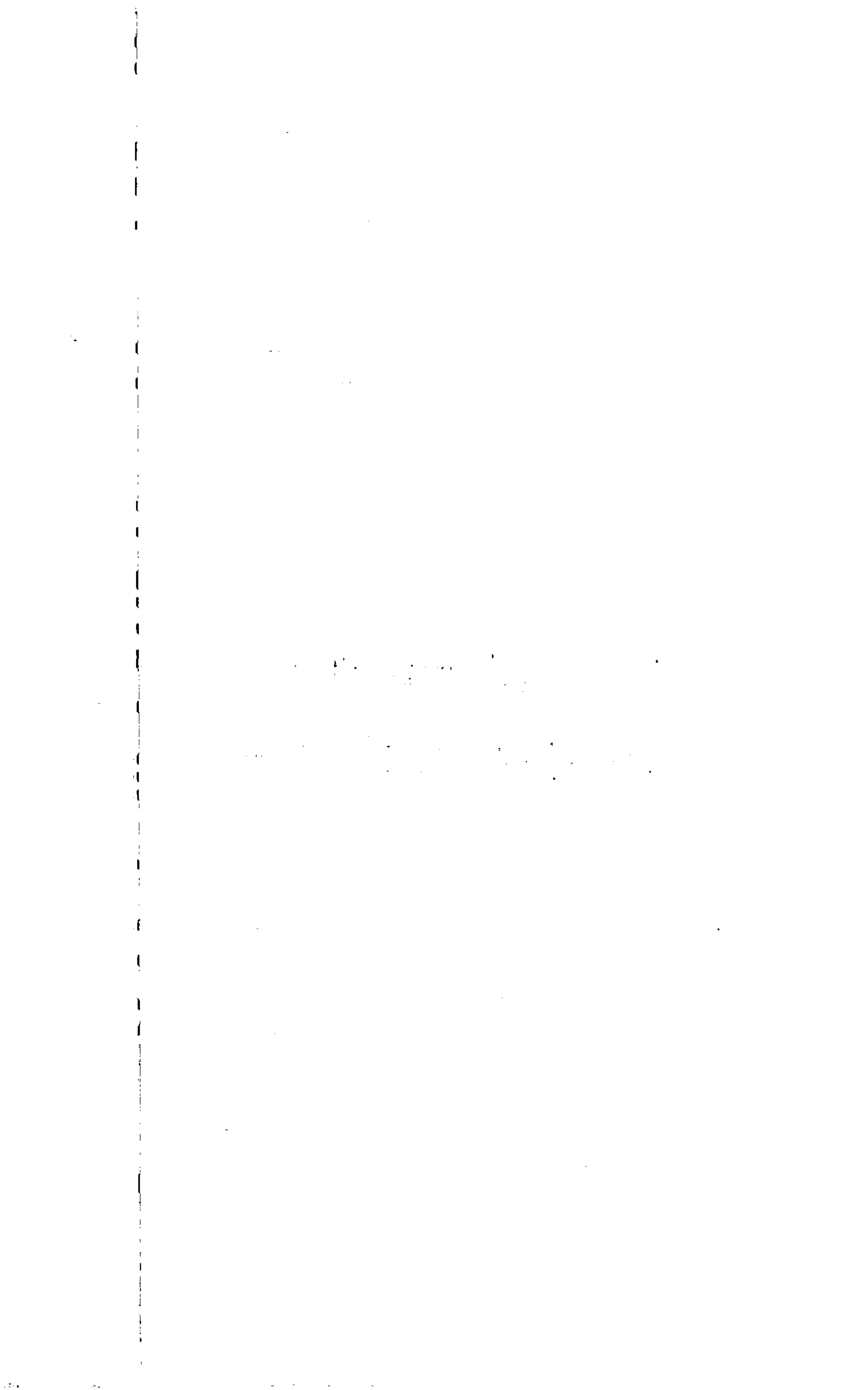
- حقق العراق بتطويره مديــات صواريخ (Scud-B) لتصل إلى طهران وقم وأصفهان مباغتة استراتيجية أتت بنتائج ممتازة لمصلحة التخطيط العراقي العام لإنهاء الحرب لمصلحته.

- اســتُخدمت هذه الصواريخ بالرؤوس التقليدية ولم يُسجل استخدامها لحمل الرؤوس الكيمياوية طوال الحرب.

- كانت الحرب دافعًا للطرفين إلى تطوير هذا الســلاح، الأمر الذي ســتكون له انعكاســات مهمة في المســتقبل على الاستقرار الإقليمي.

الفصل السابع

الدروس المستنبطة من هذه الحرب



لعله من الصعوبة بمكان سبر أغوار حرب طويلة ومعقدة مثل الحرب العراقيــة - الإيرانية التي طالت أكثر مما يجب، والتي أدت العواطــف والأيديولوجيا فيها دورًا كبيــرًا، واقتربت من أن تتحوّل حربًا عامة اســتخدم فيها الطرفــان كل ما كان بأيديهمــا من تقانة وتســليح، وكلٌ ما تمكّنت الآلة الدعائية عند كل منهما والشــحذ المعنــوي والتأليب العقائدي على فعله لتجنيد الآلاف من شــباب البلدين للقتال، في حرب بدأت نزاعًا حدوديًا وأيديولوجيًا، وانتهت حربًا على الدرجات والصعد كافــة. ومع كل هذه التعقيدات كانت المهنية العســكرية حاضرة لتقوم بواجبها في وضع كان الوطن فيه مهدّدًا في وجوده وتراثه وهويته. يمكننا من خلال التحليل المعمق التعرف إلى هذه الدروس، وســأركّز على الأداء العراقي الذي كان موضوع مذكرات الخزرجي، مع الإشــارة إلــى الأداء الإيراني في المواقع التي تستدعي ذلك.

أولًا: الدروس

- **الغايــة الوطنية**: تمثّل الغاية الوطنية الرســالة التي تؤمن بها الأمة وتبني على أساسها مرتكزات ســلوكها في المجتمع الدولي من جهة، وأسس بنائها قدراتها وإعدادها لأجيالها من جهة أخرى.

وإذا مـا دققنا النظر في الغايـة الوطنية لكلا البلديـن المتصارعين سـنجد أن الغاية الوطنية للعراق كانت الإيمان بوحدة الأمة العربية من محيطها إلـى خليجها، والعمـل الدؤوب للوصـول إلى هذه الوحدة ولو على مراحـل. ووجدنا كيف أن الخزرجي أشـار في مذكراته إلى ما كان يفكر به الرئيس القائد العام من رؤية لمسـتقبل الأمة في لقاءٍ جمعهما معًا. وكان للقضية الفلسطينية مكان مركزي في الغاية الوطنية العراقية، وصُمِّمت الدولة وأجهزتها على أسـاس رفع الحيف والظلم الذي أحاق بالأمة نتيجة زرع الكيان الصهيوني كنبتةٍ غير مرحَّبٍ بها وفي بيئةٍ ليست بيئتها. وهنا أيضًا أشار المؤلِّف إلى رؤية القائد العام تجاه الصراع العربي - الصهيوني التي استمع إليها في اللقاء نفسـه آنف الذكر. ما تبقى هو مسـؤولية الدولة عن بناء الأجيال بناءً سـليمًا وتربية جيلٍ مؤمنٍ بالله وبرسـالاته. وكان الحفاظ علـى وحدة التراب العراقي وسـلامته الإقليمية ركنًا مهمًّا من أركان الغايـة الوطنية العراقية. لم يكن في هـذه الغاية الوطنية والسياسات والاستراتيجيات التي انبثقت منها ما يشير من قريبٍ أو بعيدٍ إلى عـداءٍ موجّه إلى إيران ككيانٍ أو شـعب. كما أنه لم تكن للعراق مشكلة مع الخميني نفسـه الذي تمتع بضيافة العراق أربعة عشـر عامًا، في عشـرة منها كان العراق تحت حكـم البعث. ولم يحاول العراق مرة مجـرد الطلب أو الضغط على الخميني لإصدار بيانٍ يدين فيه موقف الشـاه مـن العراق أيام التدخّـل الإيراني في الشـأن العراقي، لذلك لم يكن العراق ينظر إلـى إيران كعدو أبدًا، بل باعتبارها بلدًا مسـلمًا جارًا، لكن هناك مشـكلات حدودية معه وأخرى تخصُّ علاقاته العربية مثل قضية الجزر، وكان العراق يرمي

إلى حل هذه الخلافات بالطرائق السلمية. على العكس كانت إيران في أيام الشـــاه تفكر بعقلية إمبراطورية مزعومة، لا وجود لها على أرض الواقع، ولا توجـــد آفاق حقيقية لتحقيقها. وفـــي أيام الثورة الإسلامية كانت تفكر على أساسٍ إســـلامي أمميٍّ بصفتها وليّة أمر المســـلمين، وهنا كان العراق في مركز اهتمامها، وكانت رســـالتها واضحـــةً، وتتمثَّل في قلب نظـــام الحكم واســـتيلاء حلفائها عليه، وإقامة الجمهورية الإســـلامية فيه. وهو أمر حققـــه لها الأميركيون في ما بعـــد، وأطلقوا يدها في العراق بحيـــث أصبح الحال على ما نرى. من هنا كان العـــداء. انطلق العراق نحو المطالبة بأراضيه التي اعترفت المعاهدات والاتفاقات المعقودة بينه وبين إيران بعائديتها إليـــه، وبالمقابل انطلقت إيـــران الخميني بالتحريـــض على الثورة الإســـلامية في العراق وتصدير الثورة إليه كأول هدفٍ يسهل بعده نشـــرها في الخافقين. هذه هي الخطورة التي تشكلها الغاية الوطنية لأي بلد على سياســـات واســـتراتيجيات البلد المعني في علاقاته الدوليـــة والإقليمية. أثبتت الحـــرب العراقيـــة - الإيرانية والعملية الاســـتباقية التي شـــنّها العراق أن الخطورة التـــي كان نظام الحكم العراقي يتحسَّســـها من تصدير الثورة هي خطـــورة في مكانها، بعد أن سهَّل الأميركيون لإيران الاستيلاء الفعلي على مقاليد الأمور في العراق بتسليم حكمه لحلفائهم.

- مبادئ الحرب: مبادئ الحرب هي دســـتور المهنية القتالية العسكرية، لازمت أعمال المفكِّرين العسكريين منذ صن تسو حتى ليدل هارت إلى الوقـــت الراهن. في الحرب العراقيـــة - الإيرانية كانت المبـــادئ الحاضرة هـــي انتخاب وتوخّي الهـــدف والتعاون

والمباغتـة والمعنويـات والعمل التعرضـيّ والتحشّـد والمرونة والاقتصاد بالجهد والأمن والشـؤون الإدارية. هذا بحسب العقيدة القتالية البريطانية التي يتّبعها العراق. إذا ما حاولنا تتبّع أين نجحت وأين أخفقت القيـادة العراقية في هذا المجال؟ سـنجد أن توخّي الهدف لم يكن واضحًـا في الصفحة الأولى مـن الحرب، لم يتم الدخول إلـى الأراضي الإيرانيـة، ولم يتم الانسـحاب منها، وما هي الأسـباب؟ كل هذا كان مبهمًا. كما أن هدف الحرب لم يكن واضحًـا أيضًا. برأينا اتُخـذ هدف إنهاء الحـرب لمصلحة العراق كهدف مركزي، ثم تمحـور القتال وتوجيه الجهد لبلوغه بأسـرع ما يمكن. ونجـح العراق في أكثر من موقفٍ فـي تحقيق المباغتة، خصوصًا في الصفحة النهائية، وكانت المرونة وقابلية الحركة مدامة بشـكلٍ جيدٍ، وبُذلت الطاقات للاقتصاد بالجهـد بتعظيم القدرات لسد الفَجوة الكبيرة مقابل التفوق البشري الإيراني 1:3.

- **المعرفة:** شـهدت الحرب تصاعد المعرفة المهنية والتقنية بوتيرة معروفة ومرصـودة، إلا أن طول فتـرة المواجهة في مرحلة الاسـتنزاف أجبر القيادة العراقية على التضحية بالمعرفة والمهارة المهنية لمصلحة سـد النقص من جراء الخسائر الكبيرة التي عاناها كادر الضبـاط العراقي، ونجمت عن ذلك إخفاقات على مسـتوى الجبهة. وسـارعت القيـادة العراقية إلى معالجة هـذه الحالة عند التخطيط لتحوّلها إلـى التعرّض العام في نهاية الحرب، الأمر الذي رفع الأداء المهني إلى درجة عالية جدًا. ومن أهم الأمثلة على ذلك تبديل قائد الفيلـق الرابع بآخر على الرغم مـن كفاءة الأول، لكن البديل كان يعرف المنطقة وقاتل فيها.

- **وحدة القيادة:** عانت القوات المسلحة العراقية مشكلة تدخّل القيادات الحزبية في مفاصل مهنية ليســت لديهــا معرفة بها، فأدى التدخل إلى تــأكّل المعنويات والثقة بهذه القيادات. حســم القائد العام الأمر بأن أناط بالقادة العسكريين فحسب مهمة إدارة المعارك، وأعطاهم الحقّ بإصدار الأوامر إلى وحداتهم، ومع ذلك ظل شبح تدخّل القيادات الحزبية في الشأن المهني يلوح بين حينٍ وآخر.

- **المرونة وقابلية الحركة:** كانــت الحرب العراقية - الإيرانية مناسبةً ممتازةً لفحص قدرة القوات ومنظوماتها الساندة على النقل على مختلف الجبهــات، كما كانــت فرصةً جيّــدةً لفحص كفاية واستيعاب الطرق ودرجة تحمل الجسور. نجحت القوات المسلحة العراقية في تحقيق مناورات تنقّل استراتيجي وعملياتي على درجة عالية من دقة التوقيت وأمن القطعات والاستفادة القصوى من جهد النقل المتيسر في القطر، إلى الحد الذي مكّن قوة فيلق من الانتقال بإنذارٍ قد لا يزيد على 24 ساعة في بعض الحالات. نرى أن التنقل بفيلقٍ والاقتران (التجحفــل) (Grouping) بإنذارٍ قصيرٍ كانا أحد أهم الإنجازات العسكرية في النصف الثاني من القرن المنصرم.

- **الأمن:** في العلم العسكري ينقســم الأمن أربعةَ أقسام، أمن الأشخاص، وأمن المعدات، وأمن القطعات، وأمن المعلومات. في هذا المجال رأينا كيف أن هذا المبدأ جرى تنفيذه بحصافة، فلم يكن هناك هروب إلى جانب العدو إلا فــي حالاتٍ محدّدةٍ زمنيًا وظرفيًا. كما لم يفرّ أحدٌ بســلاحٍ أو معداتٍ قتاليةٍ لتســليمها إلى العدو، ولم تتعرض القطعات، ولا سيما في مراحل الحرب الأخيرة، لأي خرقٍ

أمنيٌّ. يذكــر الخزرجي فـــي مذكراته كيف تمـــت مخادعة الملحق العسكري الأميركي وتشـــتيت انتباهه عن الهوية الحقيقية للقطعات المتنقِّلة على الطريق.

- الاســـتفادة من التقانـــة الحديثة: على الرغـــم من أن بعض المحلِّلين الغربيين أخذ علـــى العراقيين (والإيرانييـــن أيضًا) عدم قدرتهم على التفاعـــل مع معطيات التقانة الحديثـــة، وضرب أمثلةً على ذلك بقصورٍ في اســـتخدام معدات الحـــرب الإلكترونية، أو بعدم قـــدرة الطوائف الأرضية على تهيئة وإعـــداد العتاد (الذخيرة) عنـــد تحميله إلى الطائـــرات، الأمر الذي أدى إلى عـــدم انفجارها على الهدف، نرى نحن، مع الاعتراف بـــأن الإعداد الفني والمهني مع معدل الخســـائر في الحرب، وطول مدّتها، قد تنتج جميعًا حالة من هذه الحالات، أنها حالة ليســـت حكرًا على القوات المســـلحة العراقية، بل تشترك فيها كل الجيوش. وتكفي معرفة حجم الأخطاء الجســـيمة التي ارتكبتها القوات الأميركيـــة الغازية في عام 2003، وضرب الطـــراد الأميركي طائـــرة مدنية بريئة في بنـــدر عباس فور إقلاعها فـــي نهاية عقد الثمانينيات من القـــرن المنصرم، فهذه كلّها تدلِّل على أن الخطأ البشـــري في التعامل مع معطيـــات التقانة في أحوال الحرب يكاد يكون عاملًا إنسانيًا شاملًا.

ثانيًا: الفريق الخزرجيّ والتطور في الفكر العسكري العراقي

مما لا شـــكّ فيـــه أن الفريـــق الخزرجـــي أدخل إلـــى الفكر العسكري العراقي تطورات مدهشـــة. صحيح أنه لم يحد عما ثبتته

كتب وكراسات القتال التي تعتمدها القوات المسلحة العراقية في إعداد قواتها للقتال، لكن الإضافة الجدية الحقيقية التي أضافها هي إعادة التركيز على تدريس واعتماد ما جاء في هذه الكتب والكراسات التي كثيرًا ما أُهملت نتيجة استخدام الجيش العراقي في واجبات الأمن الداخلي منذ اندلاع الثورة الكردية في أيلول/ سبتمبر 1961، ونقل ما جاء فيها إلى غرف وقاعات التدريس، وساحات التدريب وميادين التمارين التعبوية السنوية.

ليس هذا فحسب، بل استنبط معادلةً مهمة تُعين على التوصل إلى الاستفادة القصوى من الجهد القتالي المطلوب.

أشرت في تقديمي مذكراته إلى نظريّة «الجندي والسلاح والأرض»، أي السعي إلى تطبيق كل منها بالآخر وإنشاء علاقة سوبرانيطيقيّة يتمخض عنها الحصول على الأداء القتالي الأفضل. كانت هذه النظرية هي التي استنبطها منذ تولّيه مناصب القيادة الدنيا بصفته قائدًا للفوج المظلي، صعودًا في تسلسلات القيادة عندما تسنّم منصب قيادة لواء ففرقة ففيلق، ثم تولّيه المنصب القيادي المهني الأعلى في القوات المسلحة العراقية، وهو منصب رئيس أركان الجيش، باعتبار أن منصب القائد العام ونائبه هما منصبان سياسيان، إذ كان يتولى الأول رئيس الجمهورية، ويتولى الثاني وزير الدفاع.

لو حاولنا أن نرصد التشكيلات التي قادها الفريق الخزرجي لوجدنا صدى هذه النظرية والمعادلة الدالّة عليها واضحةً، فالجندي والسلاح والأرض هي أضلاع مثلث البيئة القتالية، وبتفاعلها في

ما بينها تتقـــرر نتيجة المعركة ثـــم الحرب الدائـــرة. لاحظنا ذلك في معركة تل عنتر - تل المال التي شـــارك فيهـــا الفريق الخزرجيّ وفوجه في حرب تشرين 1973 المجيدة، كما شهدناها في المعارك والمناورات الخمس الأخيرة في الحـــرب العراقية - الإيرانية التي أشرف عليها تخطيطًا وتدريبًا وقتالًا.

نشـــير في هذا الكتاب إلى أن الفريـــق الخزرجيّ أقرب إلى فكـــر الجنرال أرويـــن روميل منه إلـــى فكر الجنـــرال مونتغمري. والواقع أنـــه كان يميل إلى فكـــرة الحرب الصاعقـــة (Blitzkrieg) التي ابتدعها الألمان، ولعل هذا ما ترسّـــب في بناء شـــخصيته، إذ كان متحمسًـــا للألمان منـــذ يفاعته، إضافةً إلـــى كراهيته الإنكليز الذين أســـروا والده ونفوه. هنا مـــن المفيد ذِكـــر أن أنصار فكر مونتغمـــري الذي يركز على التأني وصـــرف الكثير من الوقت في تأمين التحضيرات، والتأكد منها والتدقيـــق عليها، ثم التحرّك بعد ذلك، كانوا يمثّلون المدرسة السائدة في الفكر العسكري العراقي التي كان عرّابها أحد الضباط العراقيين الأفذاذ وهو الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل، وعلى هديها سار رؤساء الأركان الذين خلفوه في المنصب، حتى تولّـــى الفريق الخزرجي هذا المنصب، فتحوّل نحو تطبيق فكره العســـكري بعد أن حاز تأييد القائد العام وموافقته.

كثيرةٌ الإنجازات في هذا المجـــال، ولعل من المفيد بيان أن الفريق الخزرجي بعد النصر في الحرب العراقية - الإيرانية أشرف على ما لا يقلُّ عن سبع وأربعين دراسة تحليلية لمختلف فاعليات

القتال على مستوى التشـكيلات الكبرى (الفيالق)، ومستوى أداء الصنوف (الأسـلحة القتالية)، والخدمات (الإسـناد اللوجستي). وكانت هذه الدراسـات قد أنتجت الكثير من الدروس المستنبطة من الأداء القتالي، بما كان سـيطوِّر أداء القوات المسلحة العراقية لولا الانتكاسة التي مُنِي بها القطر منذ فرض الحصار الدولي غير الشرعيِّ عليه، حتى كارثة الغزو والاحتلال في عام 2003.

ثالثًا: الولايات المتحدة الأميركية والحرب

اتخذت الولايات المتحدة الأميركيـة موقفًا انتهازيًّا من هذه الحرب، فهـي على وجه التحديـد مُنيت بخيبة كبيـرة في إيران، حيث انتُهكت سـفارتها وصودرت وثائقها ذات الأهمية الكبيرة. ولن ننسـى العلاقات الحميمة التي كانت تربط الولايات المتحدة الأميركية بنظـام الشـاه، والتي لم تشـفع له، بـل كان الموقف الأميركي الذي قـام به الجنرال هويزر نائـب القائد العام للقوات الأميركية في أوروبا يرمي إلى تحييد مؤسسـة القوات المسـلحة المؤيدة للشـاه، وضمان عدم قيامها بقمـع المتظاهرين، أو القيام بانقلاب عسـكري الأمر الذي سـهّل على الخمينـي القدوم من باريس إلى طهران.

بعد أن فشـلت عملية إنقاذ الرهائن التـي خططت لها قوات التدخل السـريع الأميركيـة، وسـقطت طائراتهـا الهليكوبتر في صحراء طبس في إيران، لم تجد الولايات المتحدة من وسـيلة إلا المفاوضات السـرية لإطلاق سـراح مواطنيها. من هنا فإن اندلاع

هذه الحرب شــكّل فرصة لها للّعب على حبال علاقات القوة بين البلدين، فجاء إســراعها إلى تزويد الإيرانيين بالأسلحة في العملية التي أُطلق عليها اسم إيران - كونترا أو «إيران غيت»، وكذلك تزويد إيــران بمعلومات عن انفتــاح القوات العراقية. ورصــد العراقيون وتأكدوا من حالتيــن بالتحديد، هما المخادعة التــي تعرضت لها الاســتخبارات العراقية عشــية احتــلال الفاو، وتزويــد الإيرانيين بتفاصيل انفتاح القوات العراقية لتنفيذ عملية «توكلنا على الله - 1» التي تحقق بها تحرير الشلامجة.

يحاول الأميركيون من خلال محلليهــم وكتّابهم الإيحاء بأنه كان لهم دور في التعجيل بإنهــاء الحرب من خلال جملة فاعليات بحرية نفذوهــا في الخليج العربي، مثل رفــع العلم الأميركي على ناقلات النفط الكويتية، وضــرب منصتي إنتــاج نفطيتين إيرانيتين في الخليج العربي، وضرب إحدى الناقلات. ولربما نســي أولئك الباحثون ضرب الطــراد الأميركي الطائرة المدنية الإيرانية من طراز إيرباص والضحايا المدنيين الأبرياء الذين قضوا من جراء ذلك.

لم يضع حدًا لهذه الحرب إلا العراقيون الذين جادوا بدمائهم زكيةً للدفاع عن حياض وطنهم، والقادة الأفذاذ الذين قادوا أولئك الرجال وهم كثرٌ، وعندما نستذكرهم ونشــيد بتضحياتهم لا ننسى أنه كان على رأس هرم القيادة العســكرية المهنية رجل فذ كالفريق الأول الركن نزار عبد الكريم الخزرجي.

رابعًا: الحرب الكيمياوية وحلبجة

يوصم العراق منذ بدء الحملة الإعلامية والغربية لـ «شيطنته» بأنه استخدم السلاح الكيمياوي، وعلى نطاق واسع، ضد الإيرانيين وضد شعبه. ويشـيرون إلى حلبجة كمثل على هذا الاستخدام غير الإنساني لسلاح من أسـلحة التدمير الشـامل حرّمته لوائح دولية. ناقش الخزرجي في مذكراته قضية السـلاح الكيمياوي، وأسطورة ضرب العراقيين حلبجة بالأسـلحة الكيمياوية، وليس لدي المزيد لأضيفه، لكنني سأكرر الاستشهاد بمصادر أميركية معتمدة تشير في ما يخص حلبجة بعد الفحص والتمحيص الـذي قامت به جهات أميركية علمية وسياسية، إلى أن نوع العامل الكيمياوي السام الذي ضُربت بـه حلبجة لم يكن ينتجه العراق، وإنمـا تنتجه إيران، وهنا بودي إيراد جملة بليغة التأثير أوردها أنتوني كوردسـمان وأبراهام واغنر فـي كتابهما الذي رجعنـا إليه أكثر من مـرة وفي تقديمهما له[1]: «... هرب المدنيون الأكراد من البلدة (حلبجة) باتجاه العراق بدلًا من إيران، بعد سقوطها بيد الإيرانيين ونتيجة خوفهم من غيمة بيضاء مشـتعلة، فكان أن وجّه الإيرانيون قذائف مدفعية مشـحونة بغاز سـيانيد الهيدروجين، وإن غاز السيانيد تسبب في مقتل معظم القتلى، وسـاهم في العديد من الإصابات. وألقت إيران اللوم على العراق في تلفزيونها الرسمي».

---

(1) أنتوني هـ. كوردسـمان وأبراهام ر. واجنر، دروس الحرب الحديثة، ترجمة كلية القيادة والأركان، الإمارات العربية المتحدة، ص 644.

الشواهد على عدم استهداف العراق البلدة كثيرة، ويكفي أنها لم تكن على جدول أعمال أيٍّ مـن الوفود الأميركية الزائرة العراق قبل آب/ أغسطس من عام 1990. فضلًا عن التدقيق الذي أجراه الأميركيـون وعرض بليتيير نتائجه في كتابه، ومقالات كثيرة أشـير إليها في هوامش مذكرات الخزرجي.

الحرب الكيمياوية سلاح بشـع فعلًا، كما أنه سلاح لا يتمتع بالقدرة على حسـم المعارك إلا بعد إعـداد عملياتي ميداني كبير، وهذا ما لـم يتوافر للعراق. مـن هنا كان اسـتخدامه على الجبهة في أثناء القتال ومن جانب الطرفين كسـلاح مؤثّـر في المعنويات بالدرجة الأولى. وكما قال الخزرجي إن الأيام هي وحدها الكفيلة بكشف المستور. وتكفينا الإشارة إلى قيام سكان حلبجة بتظاهرات وهدمهم النصب الذي أقيم لتخليد الشهداء وجعل الجريمة باقية في الأذهان لشـيطنة العراق في عام 2009، عندما تيقنوا أنهم ونصبهم بضاعة في مزاد سياسي. رحم الله مواطنينا شهداء حلبجة فهم أولًا وأخيرًا مواطنون عراقيون شرفاء وأصيلون.

خامسًا: خسائر الطرفين

لم تكن هذه الحرب تمثّـل مثالًا متميّزًا لاسـتنزاف الموارد فحسـب، بل وللسـعي المتعمد من أحد طرفي الصراع إلى إطالة أمدها، بأمل كسـر تصميم الخصم على خوضهـا. من هنا تصرّف الخصم (العراق) بأقصى ما تمكّنه قدراتـه وباللجوء إلى أفضل ما تؤمّنه التقانة العسـكرية من وسائل قتال بأمل اسـتخدامها وبكثافة

لإجبار الخصم (إيران) المصمم على إطالة مدة الصراع على القبول بوقف الحرب واللجوء إلى طاولة المفاوضات. وعندما جفَّت منابع قدراته المالية لجأ إلى الاستدانة والاقتراض من أشقاء ودول أجنبية ومؤسسات مصرفية عالمية، فساعد هذا في خلق أزمة لاحقة، ساهم سوء إدارة ملفاتها في الإجهاز على قدراته الاقتصادية بالكامل.

على الرغم من أن صرفيات العراق على التسلح فحسب، وهذا ليس الفاتورة المالية كلها التي تحمَّلها، تشير بحسب دراسة مرفوعة إلى الكونغرس الأميركي عن حركة نقل الأسلحة، على مستوى العالم للأعوام 1980 - 1987، إلى أن العراق صرف على التسلح في هذه الفترة ما معدله 395 في المئة أكثر مما صرفته إيران (في الفترة نفسها) التي شكّل إنفاقها على التسلح ما معدّله 26.6 في المئة من مجمل إنفاق العراق على التسلح[2]، فإن هذا لا يعني أن إيران كانت الأكثر حكمة في الإنفاق، ذلك لأن إنفاق إيران القليل قابله دماءٌ إيرانية شابة سُفكت لتعويض النقص التقني في نوعية الأسلحة.

ألقت هذه الحرب بكلكلها على عاتق البلدين وشعبيهما وبنيتيهما الارتكازيتين وأرصدة حساباتهما الجارية والاحتياطية، حتى أشرفا في نهايتها على الوصول إلى الخطوط الحمر من الناحية الاقتصادية.

(2) للاطلاع على تفاصيل الإنفاق على التسلح وبحسب الدول، انظر: Richard F. Grimmett, «Trends in Conventional Arms Transfers to the Third World by Major Supplier, 1980-1987,» (Congressional Research Service Report; 88-352, Washington, DC, 9 May 1988).

وعند محاولة التعرف واستذكار الخسائر البشرية التي مُني بها البلدان، يُقدّر أنتوني كوردسـمان وأبراهام واغنر هذه الخسائر بما يتراوح بين نصف مليون ومليون قتيل، وبين مليون ومليوني جريح ومصاب، وبخمسـة وأربعين ألف أسـير حرب، ومليونين ونصف المليون مشرد[3]. وتشير إحصاءات أخرى إلى أن العراق تحمّل مئة وخمسين ألف شهيد، وضعف العدد من الجرحى والمعاقين[4].

على صعيد تدمير البنى الارتكازية التي عاناها البلدان، ليست هناك أرقـام قاطعة بالمبالغ المقدَّرة، وإن أشـار بعض التقادير إلى أن ما تحملته إيران يفوق الـ 100 مليار دولار تطالب بها العراق. ولـم ينم إلى علمنا مـا تحمّله العراق، على الرغم مـن أنه بدأ في إعادة الإعمار فور انتهاء الحرب، ومنها إعمار البصرة والفاو اللتين أصابهما التدمير بشكل كبير.

---

(3) Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*, Introduction, pp. 2-3.

(4) *TNDM Newsletter*, vol. 2, no. 3 (December 1997), pp. 10-13.

خاتمة

لم تكن هـــذه الدراســـة الطويلـــة نســـبيًا تكملـــة لمذكرات الخزرجي، وإنمـــا محاولة لتوثيق هذه الحرب بمـــوازاة ما جاء في الرواية الرصينة التـــي يقدّمها لنا رئيس الأركان الســـابق. وهي في كل الحالات اجتهادات شخصية أتحمل مسؤوليتها وحدي. ولعل ما يشفع لهذه الدراسة أنها التزمت القواعد الأكاديمية بصرامة ومن دون انحياز إلى وجهة نظـــر بعينها، بل تركت الوثائق تتحاور في ما بينها وقدمتُ رؤيتي فيها اعتمادًا علـــى إمكاناتي التحليلية وخبرتي المستقاة من معايشتي اليومية، طوال فترة هذه الحرب الضروس.

في الخاتمة، من ذهب ضحية هذه الحـــرب من طرفي القتال كان يقاتل دفاعًا عن قضية يؤمن بها، فله الرحمة. كم كنا نأمل (ولا نزال) في أن تسود بين العراق وإيران الجارين الأبديين روح حسن الجوار والمصالح المشـــتركة، وكم نتمنى أن يصل البلدان إلى بناء علاقات حســـن جوار وعلاقات تفاعلية لا هيمنة فيها ولا استتباع، لتســـتقر بذلك هذه المنطقة الحيويـــة من العالم التـــي تعتمد على استقرارها سلامة شـــعوبها ورفاهيتهم، وليستقر العالم الذي يعتمد كثيرًا على ما تمده به هذه المنطقة.

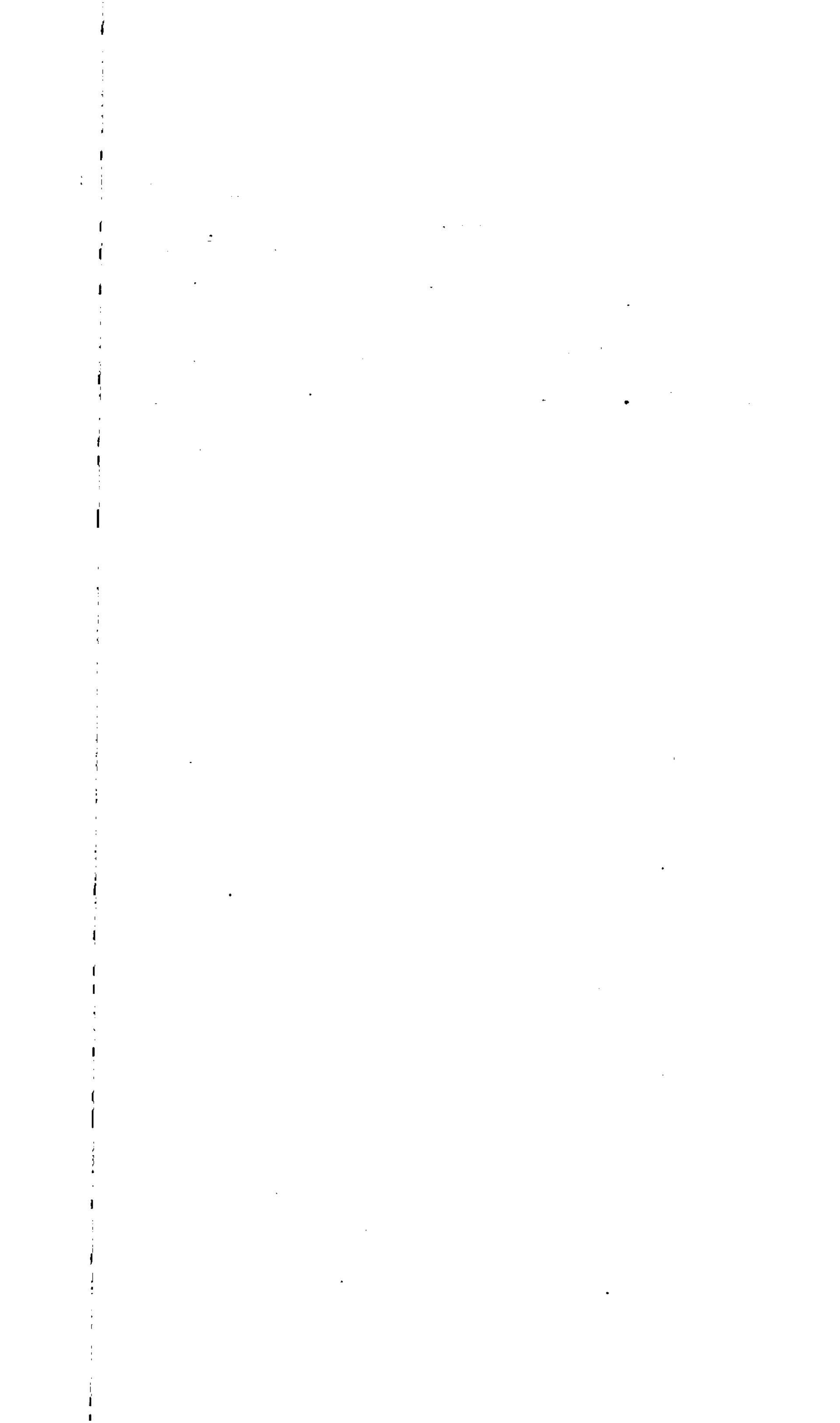
ســيتمتع القارئ وهو يمــرّ بين دفتي مذكــرات الفريق الأول الركن نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي: **الحرب العراقية - الإيرانية (1980 - 1988): مذكــرات مقاتل**، وسيشــعر بالعرفان للمؤلف الذي أرّخ مرحلــة قتالية مجيدة، أثبتت العســكرية العربية فيها أنها ندٌّ يجب أن يُحسب حسابه، لو أتيحت لها الأحوال للانصراف إلى مهماتها الوطنية والقومية، وتركت الشأن السياسي العام للسياسيين.

في هذه المناســبة يــرى المراقبون العــرب والعراقيون على وجــه التحديد، أن الأداء العراقي المتفوّق فــي خاتمة هذه الحرب كان واحدًا من الأســباب المهمة التي أدت إلى استهداف العراق، وكلنا ســمع كيف تضخمت الروايات عن ثالث أو رابع جيش في العالم فور انتهاء الحرب، وكيف قادت هــذه القناعة التي أريد لها أن تترسخ في أذهان الناس إلى البدء باستهداف العراق بإثارة سجل حقوق الإنســان وفرض العقوبات واســتفزاز القيادة العراقية التي دفعت إلى كارثة الكويت.

إن الجيش الذي نفّذ هذه العمليات الكبــرى لم يعد موجودًا الآن، وما حل محله هو شبه جيش مترهل أنيطت به مهمات الأمن الداخلي بعد أن استبيح العراق، وفقد ســيادته واحتُل، ثم ترك نهبًا للطامعيــن ليتحكّموا بمصيره وثرواته. حــل المحتلون الأميركيون هذا الجيش بقرار أصدره الحاكم الأميركي بول بريمر، لكن ما بقي منه في ذاكرتنا هــو أداؤه المتميز في معاركه، وقبور شــهدائه التي تُطرّز الأرض العربية في فلسطين والأردن وسورية، وبصماته على الأرض العربيــة في كل مكان دعاه الواجــب القومي ليتواجد قتالًا

أو تدريبًا، في الجزائر وليبيا الملكيـــة واليمن الملكي والجمهوري وفلسطين ومصر في حربي 1967 و1973، والأردن في كل حروبه مع العدو الصهيوني، وسورية أيضًا.

ســـيأتي يوم ينهض الجواد من كبوته ويعود العراق سيدًا أبيًّا، وســـيبني أبناؤنا وأحفادنا جيشه ليقوم بما قام به الجيش الأبيّ الذي نؤرخ معاركه.



المراجع

1 - العربية

أبو غزالة، محمد عبد الحليم. **الحـــرب العراقية الإيرانية، 1980-1988**. [د. م.: د. ن.]، 1993.

الأحمري، محمد حامــد [وآخرون]. **العرب وإيــران: مراجعة في التاريخ والسياسة**. تحرير عزمي بشــارة ومحجوب الزويري. بيروت؛ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

الخميني، روح الله الموســوي. **الحكومة الإسلامية**. ترجمة حامد الغار. بيركلي: [د. ن.]، 1981.

ربيع، حامــد. **نظرية السياســة الخارجية**. القاهــرة: مكتبة القاهرة الحديثة، 1969.

الســيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **تاريخ الخلفاء**. بيروت: دار الكتاب العربي، 2006.

العــراق، وزارة الخارجيــة، اللجنة الاستشــارية. **النــزاع العراقي الإيراني: ملف وثائقي**. بغداد: اللجنة الاستشارية، 1981.

كوثراني، وجيه. الفقيه والسلطان: جدلية الدين والسياسة في إيران الصفوية، الفارسية والدولة العثمانية. ط 2 منقحة ومزيدة. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2001.

كوردسمان، أنتوني هـ. وأبراهام ر. واجنر. دروس الحرب الحديثة. ترجمة كلية القيادة والأركان، الإمارات العربية المتحدة.

نديم، شكري محمود. حرب إفريقيا الشمالية، 1940-1943. ط 5. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1974.

الوردي، علي حسين. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث. بغداد: مطبعة العاني، 1965.

______. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. 6 ج في 8 مج. لندن؛ بيروت: دار الوراق، 2007.

ج 1: من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر.

ج 2: من سنة 1831 إلى سنة 1872.

2 - الأجنبية

Books

Abdulghani, Jasim Mohammad. *Iraq and Iran: The Years of Crisis.* London: Croom Helm, 1984.

Addington, Larry H. *The Blitzkrieg Era and the German General Staff, 1865-1941.* New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, [1971].

Copeland, Dale C. *The Origins of Major War.* Ithaca: Cornell University Press, 2000. (Cornell Studies in Security Affairs)

Cordesman, Anthony H. and Abraham R. Wagner. *The Lessons of Modern War*. 4 vols. Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996.

vol. 2: *The Iran-Iraq War*.

Dees, W. Jack. *Iraqi Military Effectiveness in the War with Iran*. Newport, RI: Naval War College, [1990]. (Middle East Special Studies, 1989-1991 supplement; 4. Special Studies Series)

Department of Defense Dictionary of Military and Associated Terms. [Washington, DC: Government Reprints Press], 1911. (Joint Publication; 1-02)

Goerlitz, Walter. *History of the German General Staff, 1657-1945*. Translated by Brian Battershaw; Introduction by Walter Millis. Boulder, Colo.: Westview Press, 1985.

Hiro, Dilip. *Iran under the Ayatollahs*. London; New York: Routledge and Kegan Paul, 1985.

——. *The Longest War: The Iran-Iraq Military Conflict*. New York: Routledge, 1991.

Karsh, Efraim and Inari Rautsi. *Saddam Hussein: A Political Biography*. London: Brassey's, 1991.

Khadduri, Majid. *The Gulf War: The Origins and Implications of the Iraq-Iran Conflict*. New York: Oxford University Press, 1988.

Marr, Phebe. *The Modern History of Iraq*. Boulder, Colo.: Westview; London: Longman, 1985.

Maull, Hanns W. and Otto Pick (eds.). *The Gulf War: Regional and International Dimensions*. New York: St. Martin's Press, 1992.

Parsi, Trita. *Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran, and the United States*. New Haven: Yale University Press, 2007.

Pelletiere, Stephen C. *The Iran-Iraq War: Chaos in a Vacuum*. New York: Praeger, 1992.

—— and Douglas V. Johnson. *Lessons Learned: The Iran-Iraq War*. Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U. S. Army War College, 1991.

—— and Leif R. Rosenberger. *Iraqi Power and U.S. Security in the Middle East*. Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 1990.

Ramazani, Rouhollah K. *Iran's Foreign Policy, 1941-1973; a Study of Foreign Policy in Modernizing Nations*. Charlottesville: University Press of Virginia, [1975].

Stone, David J. A. *Twilight of the Gods: The Decline and Fall of the German General Staff in World War II*. London: Conway, 2011.

Van Evera, Stephen. *Causes of War: Power and the Roots of Conflict*. Ithaca: Cornell University Press, 1999. (Cornell Studies in Security Affairs)

Periodicals

Gause, F. Gregory. «Iraq's Decisions to Go to War, 1980 and 1990.» *Middle East Journal*: vol. 56, no. 1, Winter 2002.

Karsh, Efraim. «Geopolitical Determinism: The Origins of the Iran-Iraq War.» *Middle East Journal*: vol. 44, no. 2, Spring 1990.

——. «Military Lessons of the Iran-Iraq War.» *Orbis*: Spring 1989.

——. «Military Power and Foreign Policy Goals: The Iran-Iraq War Revisited.» *International Affairs*: vol. 64, no. 1, Winter 1987-1988.

McAlister, Melani. «A Cultural History of the War without End.» *Journal of American History*: vol. 89, no. 2 (A Special Issue): *History and September 11*, September 2002.

McNaugher, Thomas. «Ballistic Missiles and Chemical Weapons: The Legacy of the Iran-Iraq War.» *International Security*: vol. 15, no. 2, Autumn 1990.

Ramazani, Rouhollah K. «Ideology and Pragmatism in Iran's Foreign Policy.» *Middle East Journal*: vol. 58, no. 4, Autumn 2004.

Razi, G. Hossein. «An Alternative Paradigm to State Rationality in Foreign Policy: The Iran-Iraq War.» *Western Political Quarterly*: vol. 41, no. 4, December 1988.

Segal, David. «The Iran-Iraq War: A Military Analysis.» *Foreign Affairs*: vol. 66, no 5, Summer 1988.

«The Strange War in the Gulf.» *Merip Reports*: nos. 125-126, July - September 1984.

Swearingen, Will D. «Geopolitical Origins of the Iran-Iraq War.» *Geographical Review*: vol. 78, no. 4, October 1988.

TNDM Newsletter: vol. 2, no. 3, December 1997.

Western Political Quarterly: vol. 41, no. 4, December 1988.

Documents

Grimmett, Richard F. «Trends in Conventional Arms Transfers to the Third World by Major Supplier, 1980-1987.» (Congressional Research Service Report; 88-352, Washington, DC, 9 May 1988).

National Security Archive. «The Oliver North File: His Diaries, E-Mail, and Memos on the Kerry Report, Contras and Drugs.» (National Security Archive Electronic Briefing Book; no. 113, 26 February 2006), on the Web: <http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/index.html>.

Torrez, Karla and Vincent Difronzo. «The Iran-Iraq War: Exceeding Means.» (National Defense University, National War College, October 2000).

فهرس عام

هذا الكتاب

عبارة عن قــراءة نقديــة ووصفية لمذكــرات الفريق نــزار الخزرجي التي أصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بعنوان **مذكرات مقاتل**. والفريــق الخزرجي كان ضابطًا بارزًا في الجيش العراقي ورئيسًــا لأركانه في إحدى مراحل الحرب العراقية – الإيرانية. أما الكاتب فهو المستشــار البحري لرئيس الأركان نفســه، ومستشاره لشؤون البحث والتطوير أيضًا. وبهــذا المعنى يمكن القــول إن عســكريًا عراقيًا خاض الحــرب ضد إيران يتصدى لقراءة مذكرات عســكري عراقي خاض بــدوره معارك الحرب ضد إيران منذ اندلاعها في 1980/9/22 حتى توقفها في 1988/8/8، فكانت إحدى أطول حروب القرن العشرين.

عبد الوهاب عبد الستار القصاب

حاز الدّكتوراه في الدّراسات الإستراتيجيّة من كلّية أركان القوّات المسلّحة ويلنغتــن في الهند ومعهد الدّراســات الدفاعيّة والإســتراتيجيّة - جامعة مدراس - الهند. أسّس مركز الزّمان للدراسات الإستراتيجية في بغداد عام 2003، وعمــل مستشــارًا للمركز العراقيّ للدّراســات الإســتراتيجية في عمّان، ومركز الدراســات الإســتراتيجية التّابع للقوّات المســلّحة القطريّة. يعمل حاليًا باحثًا مشــاركًا في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ويشــرف علــى البرنامــج الإســتراتيجي الــذي ينبثــق منــه العديد من المشاريع؛. من أعماله: **احتلال ما بعد الاستقلال: التّداعيات الإستراتيجيّة للاحتلال الأمريكيّ للعراق** (2007). **التّوازن الإســتراتيجيّ للوطن العربيّ** (2004). **التسلّح: بين النظريّة والتّطبيق** (2005).

السعر: 6 دولارات

ISBN 978-9953-0-2930-6

9 789953 029306

